حيدر عاشور

زَهَايْمَرات

قصص قصيرة

كائنات " الزهايمرات" والكشف المخاتل

طالب عباس الظاهر

نلمح الغرائبية منذ الدخول الأول في محاولتنا للولوج الى عوالم القاص المبدع حيدر عاشور، برغبة الاستقراء لأجواء قصصه وشخوصه في مجموعة (الزهايمرات) القصصية، إن كان في عملية السرد، أم في اختيار ثيمات القصص والحكايا، وبدءاً من العنونة فإنه يحيلنا الى مرض " الزهايمر" وهو مرض يصيب الذاكرة بشكل تدريجي، فيبدأ المريض بنسيان الأشياء والأحداث وفي أثناء تطوّر مراحله ينسى المريض أقرب الناس إليه حتى يؤدي المرض بضحيته الى الموت في نهاية المطاف.

ومن هذا المنطلق فقد كانت محاولة دخولنا لمعايشة عوالم قصص " الزهايمرات" ومفردها الزهايمر، بإشارة لاعتلال الذاكرة، ورغبة الاستقراء لأدوات القاص، فنحسب بأنه بصدد محاولة العرض والتعريض لأمراض الواقع لأشعة الشمس، بل ووضعها في النور تحت مجهر الكشف والرؤية الفاحصة ... لتكون شاهدا حيّا للمستقبل، بعدما عاشت في الظلمات طويلاً، وتفشت أعراضها متفاقمة في جسد الواقع وروحه التي مازالت تئن من خبائث الماضي وأورامه المزمنة، لتلقي بظلالها القاتمة في الأخير على الحاضر، وربما المستقبل أيضاً، كخطوة أولى للتشخيص بالمعرفة، ومن ثم بدأ المعالجة سبيلاً للشفاء أو الموت.

لا ريب إن القاص يمتلك نفساً سردياً له خصوصيته المأزومة، ربما جاءت متأثرة كثيراً بما مرّ على الذاكرة الجمعية العراقية من ويلات وويلات الحروب والحصار والطغيان في دولة الجريمة المقننة إبان الحقبة البائدة، ومن ثم ما تلاها من تداعيات مأساوية مازالت آثارها قائمة بموجة الإرهاب الأعمى وهو يضرب بأطنابه في أدق مفردات الحياة اليومية والتفصيلية للناس... سرد يرسم مشاهد حيّة من الوجود القلق تحت هيمنة الموت المطلقة، لكنها متداخلة ومتشابكة ، حتى تصل أحياناً حدّ التنافر فيما بينها. معلنة بذلك عن نفس القاص السردي كإنعكاسات في مرآه الأزمة... بغرائبية التخليق الأدبي في سرد تفاصيل الأحداث لأبطال قصصه وحكاياه ... سواء أكان ذلك من خلال انتخاب طرائق التناول، ومنظور الرؤية، وزاوية الرصد، وأسلوب إدارة الحبكة أو من خلال المعالجة لثيمات قصصه وحكاياه التي عانت بعضها من حالة التشتت في بعض مفاصلها، وغياب الهدفية والإدارة المركزية في

بعض آخر ... عبر تعكزه أحياناً على الموروث الحكائي الشفاهي في تناول جوانب مسروداته كما في قصة " مطلوب عشائرياً" على سبيل المثال وكأنموذج لما أشرنا اليه.

إذ إن القاص حاول جاهداً في مجموعته هذه المزج ما بين تقنية السرد بذات النفس الإخباري فيما يسمى بالقصة الصحفية... عاكساً عمله الطويل في الصحافة بظلاله ربما على أداؤه الأدبي في مجموعته هذه بشكل واضح، وهي تقنية يشوبها الافتقار الى الصورة الشعرية، والى التشبيه أو المجاز أو الاستعارة، وغيرها من المحسنات اللغوية والبلاغية، وما بين القص الأدبي بتأثيثاته المعروفة إضافة لما تم التطرق اليه الآن.

ناهيك عما يظهر بشكل بارز وجلي من تناول متكرر ومباشر للهم السياسي والوطني في هذه القصة أو تلك الحكاية من قصص وحكايا المجموعة بأسلوب التقارير الإخبارية كما جاء في قصة "قرار مؤجل" و "صاحب الأذرع الطويلة" و" سيطرة" وغيرها ، وهي تؤرشف لمرحلة ما بعد التغيير الكبير في تاريخ الوطن الجريح، وتؤشر أبرز متغيراته على مستوى المعاش واليومي ... بتفاصيل كثيرة ودقيقة ومتشعبة، وبغرائبية الحدث والمعالجة، إضافة لما يعتمل في دواخل القاص من هموم وآلام وتراكمات الإحباط، وقيح التطلعات الجريحة لنفس طامحة الى سماء الحرية، وواقع النقاء، قصص وحكايا رصد من خلالها مشاهد حياتية، وأوضاع متفاوتة من طبقات مسحوقة في المجتمع، مؤشراً للفوارق الطبقية الفاحشة ما بين شخوصه كما في قصة " موت تاجر"، كما رصد لمظاهر اجتماعية لطبقات مسحوقة من المجتمع كما في قصة " مؤامرة الغرفة" ولمظاهر اجتماعية راهنة ومعاشة كما في قصة (أسلاك شائكة).

إن القاص ربما نحا في أسلوب طرحة لمضامينه بهذا الشكل المباشر توخياً للوضوح وللابتعاد عن التعقيد، وطلباً للتخفيف على المتلقي... بسهولة الطرح، خاصة في خضم ما يعانيه قارئ اليوم من فوضى المؤثرات، وتكالب المشاكل والهموم والأزمات في الراهن من الزمن.

أقول، إن القاص لعله يراهن على انتخابه لأسلوب البساطة في طرح مضامينه... سبيلاً الى وصول الفكرة بانسيابية ويسر، فهو يعوّل على مضامين قصصه وحكاياه أكثر مما كان يعوّل على قوة اللغة وبلاغة الأداء وفنية الحبكة، من أجل أن تدخل بانسيابية الى ذائقة القارئ، وتؤثر فيه سلباً أو ايجاباً، رغم إنه في العديد من قصصه وحكاياه كان يمهد لمضامينه بمقدمات طويلة نسبياً، بل وأحياناً معوّمة وغائمة وعسيرة الهضم بعض الشيء.

لكننا نجده يعمد أحياناً في بعض قصصه وحكياه الى عملية استبطان لشخوصه... تلك القابعة في زوايا مخيلته الخصبة، ودهاليز ذاكرته السحيقة... فبعضهم عاش ورحل عن هذه الحياة، والآخر مازال يجاهد ... وبعضها خلّقها لتكون لها حياتها الخاصة في قصصه وحكاياه، كما في قصص " كواليس" و" الضلع الثالث" و" وعود ما بعد المقصلة"، كأنه في كل ذلك يفتش عن الجانب المغيب من وجود كائناته المقهورة والمسحوقة والمهمشة... حيناً بالفقر وبالسجن وبالخوف والمرض أو وحيناً آخر بقبوعها في ظلال بويهميتها... رهينة الإهمال، وكردة فعل للتهميش والنسيان ... في واقع حياة مازال يحكمها الزيف والتزييف.

أخيراً، فإن القاص المبدع حيدر عاشور حاول جاهداً بسرده لقصص (زهايمرات) وحكاياها أن يسحبنا لمنطقته من أجل أن يغوص بنا الى عوالم بعيدة القرار... كابوسية .. حلمية، كأنها عوالم تقبع تحت مستوى المنظور من تفاصيل الحياة المألوفة، والمغيب عن الرؤية العادية للناس، حياة مظلمة ... يكتنفها الغموض والدسائس والسرية، وهو يرصد بمجساته المرهفة أدق الذبذبات للأحداث، ويتلقي ردود أفعالها على الإنسان ، وهذا لعمري ديدن الفنون والآداب في محاولة تحسس نبض الحياة اليومية، وتسليطهما الضوء الكاشف عن المخبآت من أحداث الوجود ، والمغيبات من أسرار الحياة ، وغرائبية ما يمور في دواخل الإنسان.

المحتوى

١. قرار مؤجل
٢. صاحب الأذرع الطويلة
٣. ولا حتى في الخيال
٤. نذور الشياطين
٥. موت تاجر
٦. مؤامرة الغرفة
٧. مطلوب عشائريا
٨. كواليس
٩. عيون اصطناعية
١٠. صوت منامي
١١. صديق و(نص)
١٢. سيطرة
١٣. سلطة الوهم
١٤. خط احمر
١٥. خدعة صديق
١٦. حليب مريم
١٧. هروب إلى القتل
١٨. الضلع الثالث
١٩. صمام الأمان
٢٠. أزمة
٢١. امرأة حديدية
٢٢. وعود ما بعد المقصلة
٢٣. **أسلاك شائكة**

قرار مؤجل

كلنا نلهو بأحلامنا وما كنا نعلم أننا نعيش بأرواحنا فقط وما الحلم إلا تمني لمستقبل نخطط له بحلم ويتحقق غير ما نفكر ونحلم ونخطط ،لم يكن بخلدي أن ارجع إلى بلدي مع قوات تحمل السلام، كما افهمونا، وتدربنا بقسوة وصبر من اجل ساعة الصفر هذه.

هكذا كنا نستمع إلى النقيب الأمريكي حجي طالب في فندق فلسطين مرديان بعد احتلال العراق بتسعة أيام، كنا نبحث عن فرصة عمل بعد أن نفدت كل أشيائنا، وبنفس الوقت شعورنا الوطني الذي يدفعنا أن نساهم في بناء عراقنا الجريح.. وهو القادم مع القوات الأمريكية، ويدعي العراقية والحرص.

تسلل الشك إلى داخلي لكونه يجيد اللهجة العراقية بطلاقة وهو ليس بعراقي، تفحصت عيني جميع الحضور ممن على شاكلتي وهم فاغرو الأفواه، يستمعون إلى مسلسل درامي جديد بطله هذا الأمريكي العراقي.. ونحن نتبادل النظرات متعجبين من قدرته على الكلام بصراحة مطلقة.. تارة يدين أمريكا وأخرى يؤكد وجودها من اجل سلام المنطقة والقضاء على بقايا نظام انهار تماما. كان الحضور أغلبيتهم من المثقفين والإعلاميين، أثارتهم طريقته في التلون بالحديث فلم يصبروا على ذلك ظنا منهم انه يلعب بعواطفهم واندفاعهم لخدمة الوطن فلم يعطوه فرصة لتكملة حديثه بدأ القال والقيل بينهم ،وأثارت مناقشات بصوت عال، وبشكل عشوائي، فانعدمت مركزية الحديث.. يتحدث والجميع يتحدثون مع بعضهم البعض حتى وصل إلى مسمعه بعض الشتائم ونعته بالعمالة والخيانة وبيع الوطن فوقف حجي طالب بزيه العسكري الأمريكي الكامل وهو يرفع صوته :

ـ انتم العراقيين تبقون تعيشون في وهم الإخلاص للعراق، واليوم جاء الدور الأمريكي في المنطقة فالإخلاص لأمريكا يعني الإخلاص للعراق.

ردفه صوت أعلى من صوته :مبارك لك إخلاصك لأمريكا أيها الخائن المرتزق.

ضحك حجي طالب وبدأ الحضور ينعتونه بالمرتزق وهم يخرجون نادمين على حضورهم بهذا الشكل المهين...كنت أيضا من الخارجين المتذمرين الحائرين بشكل العراقي الأمريكي حجي طالب، وبقيت في صالة الفندق ابحث عن أي شخص اعرفه، وكان الفندق يعج بالأمريكان واغلبهم يتحدثون العربية منهم القطري والإماراتي والسعودي والأردني إضافة إلى قادة أمريكيين وعراقيين...جلست أراقب الوضع عن كثب وتدور عيني بشكل دائري وتستمع أذناي لتشكيلات من الحديث الغريب ضد المواطن والوطن.

فضائيات تراقب، وأجهزة مراقبة في كل مكان...تدخل إلى القاعة جماعات وتخرج أخرى والكل يبحث عن فرصة للسيطرة، في هذا الجو الملتهب بالمراقبة والحذر وجاهزية الأسلحة.

دخلت جماعة يترأسها رجل دين وقور هيبته تثير من يراه، وتأخرت في الانتظار وارتفع صوته يطلب من طلبه للحضور ان يلتقيه على الموعد الذي أعطاه له: أليست أمريكا تحترم الزمن...إذن أمريكا لا تحترم المواعيد والزمن فعلى الدنيا السلام...وبسرعة البرق جاءت مجموعة مسلحة يتوسطها رجل كبير وهمَّ بالترحيب برجل الدين واحتضنه مقبلا،وهم يتبادلون الابتسامات وساروا باتجاه المصعد وآخرون باتجاه السلم.

ما هذه المتناقضات التي أشاهدها ؟وما هذه الغرائبيات التي أراها مرأى البصر؟.. انسابت الدموع بشكل لا إرادي من عيوني، وهذه المرة الأولى التي ابكي بها على وطن أو إنسان...توفيت والدتي كنت الوحيد الذي لا يبكي عليها لان الموت حق السماء وشيء مكتوب ليس منه فرار،أما بكائي الآن هو موت العراق بشكل كامل، واستوطن غير العراقيين ليكونوا عراقيين بجوازات مختلفة وانتماءات متحزبة وتجمعات بأسماء وهمية، وكتل تحمل شعارات السماء بلا تطبيق.

آه: على بلد ستتغير أحواله ونفسياته...وهل سنكون بعد ذلك عراقيين أم سنتحول بالتدريج الى صناعة جديدة بمسميات جديدة ومتعددة؟.

بقيت جالسا كالميت أتنفس رائحة غريبة من كل اتجاهاتي أيقنت إنني ميت إذا ما بقيت هنا.. الكل في هذه القاعة واضعٌ دمه في قنينة زجاجية ينتظر تهشيمها على حين غرة.. ها هو حجي طالب مرة أخرى يدنو مني.

ـ أنت هنا.. لماذا لم ترحل معهم؟ وما هذه الحسرة وعلامات الحزن على محياك العراقي بجماله الأسمر... أنت يا بني كزملائك لا تفهم شيئا..!

ـ ما هو الشيء الذي لا أجيد افهمه ؟

ـ تتصورون أن أمريكا محتلة.. وانتم أنفسكم طلبتم تخليص العراق من طاغية العصر، وها هي أمريكا تلبي دعوتكم.

ـ أمريكا جاءت ثائرة لأحداث الحادي عشر من ديسمبر وانفجار برجي التجارة العالمي، حجي أنت تتكلم مع إنسان عراقي واعٍ وليس من الذين استقبلوكم بالورود، وما حضوري إلا من باب الفضول.

ابتسم حجي طالب وجلس بقربي وهو يتفحصني بعينيه العسليتين اللتين تحملان قسوة ظاهرة، مرتكزتين على سحنة سمراء تمثل الحنان والعطف ليقول :

ـ سأروي لك قصتي التي تشبه جميع قصص العراقيين والعرب الذين قدموا مع أمريكا الى العراق، بكل صراحة إكراما لهذه الدموع...اسمع حينما فتحت عيني كنت في مدرسة داخلية في أمريكا ومعي من أطفال العرب والأجانب الكثير..عرفت أن أبي جاء الى أمريكا منذ أكثر من أربعين سنة بصفة لاجئ من ظلم النظام الحاكم في العراق ، وتزوج وهو في أمريكا بعد أن أرسل جدي حبيبته التي تركها عندما كان في جامعة بغداد،وهي أمي الآن..أكملت الدراسات جميعها،ولم أرَ أبي وأمي إلا أسبوعا في كل نهاية موسم دراسي...تعلمت النظام الأمريكي،وهذا النظام كان يشمل جميع أحوال العراق اقتصاديا واجتماعيا ... وهذا ما تعمل عليه أمريكا بشكل خاص مع كل المستوطنين في الدول والمحافظات التابعة للوصايا الأمريكية تدربهم لهذه الساعات الحرجة في انهيار أي كيان مؤسساتي شمولي يعمل ضد أمريكا او تمرد عليها،كما حصل في العراق من انهيار،عملت من أجله أمريكا منذ فشل البريطانيين في احتلال العراق وخروجهم بثورة العشرين...أعادت أمريكا حساباتها وجهزت لذلك عدتها وصنعت مؤسسة كاملة من أبناء العراقيين ليقودوا العراق في هذه الأوقات وأنا احدهم من الجناح العسكري الاستخباري الأمريكي اشرف على الأعلام في العراق الجديد .

ـ يعني أن العراق بدأ بصناعة أمريكية وسينتهي بصناعة أمريكية .

ـ صحيح وهذه الصناعة ليس في العراق كما قلت لك هناك في أمريكا عرب من كل الجنسيات ومستعدون لخوض نفس التجربة فيما إذا انتهت ورقتها في قيادة الحكومة..اغلب الحكام العرب هم تحت السيطرة الأمريكية وقوتها في المنطقة بل الشرق الأوسط كله ولأمريكا نفوذ في تركيا وإيران وروسيا وغيرها من الدول التي تدعي القوة وقوتها وراءها أمريكا .

ـ يعني هناك دول عربية ستلحق العراق بنفس النغمة السياسية التي تتبعها أمريكا في شقيها التدمير الشامل والمعالجة الشاملة ،توجد المشكلة فتحرق المكان ،وتجد الحل لبناء المكان .

وقبل أن يجيبني بنعم أو لا سحب حجي طالب نفسه مني بذات الابتسامة وبقيت وحدي ابحث عن قرار مؤجل في خيالي منتظرا فارسا عراقيا من رحم العراق يقنعني بالصبر على أن لا أكون عراقيا أمريكيا أو أمريكيا عراقيا.

صاحب الأذرع الطويلة

سحبني الى منطقته المحرمة بهدوء وصبر متعكزا على معرفتي بأخيه وضلوعي في مهنتي التي تحتاج الى سلسلة طويلة من المعارف والعلاقات ،أحسست بالخطر وامتثلت إليه ... وهذا الخطر قد نمّى في أظافري العز بعد الفاقة والنفوذ بعد البساطة في عمل يدر عليّ الكثير من النعم.... خضعت بعفوية الى قوانينه وقوته وأصبحت له مدرارا مستمرا لجني الأموال بعد أن عقد معي صفقة الربح بلا خسارة،ووظيفة غير رسمية ،بسلطان يخترق كل الممنوعات بنظام قوة(الأنا)، هذه القوة الخرافية المكانية التي تجعلك تنسى حتى حواسك وتخميناتك وتكهنات لمستقبل قلق ،وأنت على حافة هاوية ،إن سقط ، سقطت أنت أيضا ... والغريب انه لم يسقط بل سقطت أنا على حين غرة من أمري حين دخلت عليّ مجموعة مسلحة... بادئ الأمر شعرت شعور من يختطف في بلادي أمام أعين الملأ بلا غيرة أو شرف أو سلطة حكومية... يأخذون البشر كالشاة ليذبح على انتمائه العقائدي وما أكثر المذبوحين من اجل معتقد ديني واحد،باختلاف الأوصياء والقادة والرموز العقائدية الأخرى.

اقتادتني هذه المجموعة لسجن حكومي، وجدت نفسي وسط عالم غريب وعجيب جلست بموضع دخولي، وعيوني تبحلق في كم من السجناء المختلفين تماما عما اعرفهم من البشر... انه كابوس ثقيل جثم على صدري وكأنني أحلم بهذا المشهد وسأفيق في صباحي وينزاح عن صدري هذا الهم الثقيل، جاءني صوت يدل على قسوة صاحبه: يأمرني بالابتعاد عن مكان جلوسي وإلا يمسح بي الأرض طولا وعرضا .أجبته بصوت مخنوق

- اتركني قليلا.ألا ترى أن لا مكان لجلوس أو وقوف.!

- عندك مال، ساجد لك مكانا محترما حسب دفعك له.

أيقنت من فوري إن المحترم هنا المال فقط لا غير ولا قيمة للبشر فيه ،وفعلا حين شاهد إخراجي المال وأنا أقول له كم تريد ... جلس القرفصاء أمامي وغيَّر لهجة كلامه ويقيني وحدسي طمع بّي من اجل المال ،وقد يساق الي الطعام الوفير ولكن ليس باليد حيلة إزاء مكان حقير رائحته نتنة وجدرانه متسخة، وحمام يمارس فيه أحقر الممارسات..لا يدخله احد ما لم يعط المعلوم مقابل أن يقضي حاجته... أي حقارة هذه في بلد اختلت موازينه من كل الجوانب، فليس هناك مفاجأة في سجن يضم أطرافا مختلفةً تجمعها كلمة واحدة (مجرم) ضمن المادة القانونية حسب الحالة الإجرامية... منحني شيخ المجرمين مكانا بعد أن اخذ مني مبلغا من المال عن

طريق شخص أخر كي لا تثبت عليه شيئا فيما إذا كنت جاسوسا من الشرطة لكشف مجرمين لم يعترفوا رغم شدة التعذيب، وهذا تشكيك يحدث لكل من يدخل السجن للوهلة الأولى وقبل أن ينضم لمجموعة يطلق عليها تسمية غريبة (سفر داش) أظن إنها لغة فارسية أو تركية وهي شبيهة بمصطلح (كروب).

كان يومي طويلا وصعبا لم اشعر إنني نمت بصورة كاملة خوفا من السرقة التي نبهني إليها سجين له باع طويل في زوايا السجن تعاطف معي وشاركني طعامه بليلتي القاسية .... أيقنت إن حدسي كان في مكانه حين عرفت تهمتي بالرشوة جاءت عن طريق مصدر سري ومخبر وشهود ... وهذه القوانين الجديدة التي ابتدعتها الحكومة المنتخبة من قبل الشعب للحد من الفساد الإداري في دوائرها الغارقة بالفساد في زمن الفاسد يحاكم الفاسد بنظام الإزاحة والبقاء أو الامتلاء بالدولارات لزمن بعيد عن سلطة الكرسي أو عند التقاعد الإجباري ففي وطني هناك أشخاص سريعو الصعود،وسقوطهم أسرع لكثرة النفاق السياسي وتنوع الأجندات الحاكمة وغالبا ما استجيب لحواسي وهي تنبهني عن خطر آت وتلعب لعبة التخمينات والتكهنات، والتوقعات لأجد نفسي أمام حالة حقيقة ملموسة تحاول الإيقاع بي أو ابتزازي، ورغم معرفتي بكل ذلك لا أتجنبها ولا آخذ أي احتياط لحمايتي لذلك كنت دائما الخاسر، وفي نهاية كل فشل متوقع، اضحك ملء فمي... التهمة لا ضحك فيها، حقيقتها مرة وعاقبتها السجن فليس هناك مال للخسارة... الخسارة هنا السمعة والشرف وفقدان ميزات حياتية كثيرة وتهديم لقيم ومبادئ عرفتني بها عائلتي وأصدقائي وأحبائي.

وها أنا ماثل بصفة متهم أمام السلطات الخاصة بالفساد الإداري أطلق عليها (النزاهة) والتي تعاملت معي بلا نزاهة ،أساليب قذرة من اجل تزويغ الأمر للإطاحة بأخ صديقي المتربع على كرسي الوزارة وهو يملك العديد من الأذرع الطويلة المتنوعة في غاياتها والمتشعبة في دهاليز العرض والطلب والقادرة على أن تضع لكل حالة قانونا وحماية وضحايا ،فكنت احد الأذرع البريئة التي لم تختلس ولم تزايد على أموال الدولة ولكن إحساسي بان هذا المتسلط لديه برنامج خاص به للسيطرة على أموال الوزارة باسم القانون وكما يقال (حرامي بهوية) وما أمثالي إلا ضحايا فساده وإصراره على الفساد وسحب الشرفاء بطرق عديدة وملتوية لتلويثهم والسيطرة عليهم إما أن تكون عبدا له أو يلصق بك التهم بسلطانه...وما جلوسي للتحقيق إلا نتائج عملي معه وإطاعته على الخطأ، واستحق ذلك لقبولي وطمعي بالعيش الرغيد ...دخل المحقق (مربوع) الجسم وكأنه طاووس قصير ينفث دخان سيكارته ليقول:

- أنت لست متهما بل جئنا بك لتوضيح أمر معين يخص الإرهابي والجاسوس وشريكه وأنت اعرف واقرب شخص لهم .

بين نفسي اعرف قضيتي ولكن تجاهلتها واسترخيت لذلك وقلت له من فوري:

- من هؤلاء؟ أنا لا اعرف أشخاصا بهذه الصفات الحقيرة وان كنت اعرفهم ولدي ما أقوله سأوفر عليك الزمن قل لي من هؤلاء؟.

- أنت تعرف من اقصد هم أصدقاؤك وحاليا هربوا الى خارج العراق بعد كشفهم ووجدنا تعاملك معهم يستند إلى وثائق وقرائن.

- أنا لم أتعامل بأشياء مخالفة للقانون عملي هو وسيط بين الدوائر الحكومية وغير الحكومية والوزارة.

- إذن اشرح لي عملك ؟

لم أتوقع أن يكتب أقوالي ويقوّلني بما لم اقله مستغلا حالتي النفسية الصعبة وعدم قدرتي على قراءة ما يكتب لفقدان نظارتي الطبية ،وأقنعني بالذهاب الى بيتي إذا ما قلت الى القاضي إن كل ما مكتوب حقيقة...وهنا بدأت المشكلة بعد أن أمر القاضي استمرار سجني من اجل إلقاء القبض على مسؤول كبير من وزارة سيادية .... ولكنه ذكي وذو باع طويل في تأمين نفسه من القانون. خرج وتركني وحدي اغرق في بحر القانون وأتلوى ألما نفسيا من شدة الخوف على مستقبلي..امتثلت أمام القضاء،ولكن القضاء لا يتعاطف مع الاعترافات التي صاغها علي ذلك المحقق المغرض بعد أن ارتشى من جهات عليا ليكتب سيناريو اتهامي بالجرم المشهود وأنا المغفل الوحيد بين مجموعة من الوحوش الكواسر، عبدة الكرسي والدينار..حاولت الدفاع عن نفسي بعد أن نصحني أصدقاء يخصونه أن اكذب لكي(أنجو) و(انجي)..لان القضاء في بلدي يعشق كذب المجرمين ومراوغة المحامين فالذي ينطق صدقا ويخاف كتاب الله، يدخل السجن لا محالة حتى لو كان بريئا ويخرج المجرم بمجرد الكذب على القضاة ... ولكن كنت من الصدق ما يحكمني ووجدتني المحكمة مذنبا بجرم لم ارتكبه وأخلت سبيلي بعد غرامة مالية وأضاعت كل حقوقي وأصبحت مشبوها...أما صاحب الأذرع الطويلة علت مراتبه وكبرت اذرعه وتضخمت أكثر بسبب جشعها اليومي وتأييد السلطات لها وتزكيتها ومناصفتها... بقي يرسم الخطط لجني الأموال واكتشفت بعد غرامتي المالية قوته الخفية بان عمله وراءه سياسيون كبار ورجال أعمال من داخل وخارج البلاد وما هو وقوته الخفية إلا لعبة يدير كفتها أسياده الذين أجلسوه على كرسي السلطة ومنحوه قوة بلا قوة

ونفوذا مصطنعا غايته الربح الحرام من أموال الشعب باسم الشعب...وما أكثر(الحراميه) والسلاطين في حكومة بلادي ولكن بهوية وطن!.

ولا ... حتى في الخيال

لم أتوقع منها سوى شيء يبعث روح الأنانية بطريقة الحقد الدفين بعد أن تغلغل الى أعماق روحها الشريرة،فلم تعد تصبر على الاحتفاظ بضحكتها وابتسامتها السمية التي تكشر عن أنياب السم التي تقتل نفسها إن لم تجد من تقتله.

اعرف ذلك الوجه، منذ أكثر من عشرين سنة ونيف... ها هي لم تتعلم من الحياة وتجاربها إلا جانب الحقد والحسد والنظر من ثقب إبرة لمجرد اختلاس نظرة شامتة تعيد إليها قوة خفية من سعادة الشياطين من الإنس المتمظهرين بصورة إنسان وباطنهم ممتلئ بالشر للآخرين...تحولت الآن الى حيوان بصورة بشر ابتعدت عن محورها الإنساني وتسلطت بسطوتها الغرائبية على كل من حولها، وجعلتهم بقبضة يدها تسيرهم كيفما تشاء وتذلهم كيفما تريد بعد أن امتلأت خزائنها بالجواهر والذهب والدولارات،يا... لقبحها، ويا... لتاريخها الحقود،وهي سيرة قذرة لإنسانة بعيدة كل البعد عن ابسط قيم للإنسانية..لم أشاهد في رحلتي وتجربتي الروحية المتقوقعة بين الدين والدنيا مثلها،ولم اصدم بشاكلة على نمطيتها..إنها ساحرة،وتتعامل في السحر وتعطي جسدها من اجل مصيبة توقع بها الأخر.

آه تذكرت حينما كنت صغيرا ومريضا بنفس الوقت .. كان عمري لا يتجاوز الخامسة ، وهي تسير بي في أزقة الكاظمين الموحشة في غربة الوقت ونهاية يوم لا يدخل الى فروعها سوى بصيص من أشعة الشمس لقرب حافات السطوح وتماسكها مع بعضها البعض وصلنا الى بيت بابه من الخشب القديم وزخرفتها صناعة يقال عنها يهودية أو مندائية لان هذا الجزء يقنطه المندائيون بداية بناء الكاظمين...البيت الذي نقف أمامه يسكنه (مندائي) ساحر.. صعدت سلالم صغيرة أمام الباب وطرقته بمقبض حديدي ثلاث طرقات متتالية ، ودون أي نفس فتح الباب وظهر منه وجه شاب تميل سحنته الى الأزرق القاني ارتجف قلبي هلعا انه شيطان حقيقي بهيئة بشر، دخلنا البيت وأجلسنا على حصيرة من جريد النخيل وأمر الاختلاء بها قالت له:

- لا تخف منه انه صغير ومريض ولا يفهم شيئا.

جلب صفرية في داخلها ماء ومبخرة طويلة الشكل مصنوعة من الفضة الخالصة يخرج منها عطر غريب يوحش المكان أكثر ويبعث أصواتا خفية تتلاعب مع حركته للمبخرة وهو يردد كلمات بلغة أجنبية مرة يبكي وأخرى يضحك وهو يلاعبها ويداعب جسدها وهي تتمايل في غثيان وكأنها رحلت الى عالم مختلف وتشاهد وحدها ما لم استطع تحديده من تراقصهم وسط أبخرة الدخان وانكشف عن

عيني جزء لأجدها تضع حوله غطاء سميكا (بطانية) من الصوف وتلف حوله حبلا سميكا جدا وهو مطرق الرأس يرفعه بتمهل شديد ،عيناه تبيضان وتحمران وحركات وأصوات داخل الغطاء الصوفي تأمره فيقول نعم ويطلب منها فيهتز جسده وبقي على هذا الحال وقتا لست قادرا على تحديده حتى فاق من غيبوبته السحرية وينظر لها بعين الرضا والاستجابة لم أعِ شيئا ماذا طلب وأي شيء سيتحقق، بدأت أتقيأ ،ومسكتني بعنف وخرجنا وسط ظلام دامس ... بقي المنظر عالقا في ذهني فترة طويلة كأنه حلم يراودني في كل أشيائي ،وفي صيف لاهب ونحن نائمون بسرداب تحت الأرض سمعت حركة غريبة وأنا نائم قرب أمي رفعت راسي وجدت شخصا يحمل مقصا ويقص خصلة من شعر أمي ، أخافني بنظرة حاقدة واختفى من فوره لم تشعر أمي بأي تغييرات سوى الحريق الذي شب في دارنا ،معارك لا نهاية لها بين أبي وأمي وإخوتي احدهم يضرب الأخر بقسوة وجنون وصل الأمر الى اتهامات وخيانات . زارتنا الحاقدة لتقول لأبي:

-إن ابنك الكبير ليس من صلبك أترى انه اسود الوجه ؟

المشكلة صدقها أبي وطرد أمي من البيت وبدأت رحلة العذاب اليومي والحرمان الذي بان على عائلتي والمصائب تتوارى علينا من كل حدب وصوب أختي سقطت من السطح حملها جارنا النجار وأختي الثانية أصابها مرض الصدفية وأخي المطعون بشرفه تساقط شعر رأسه وأصبح أصلع تماما .... جاءت الحنونة جدتي وبقيت بقربنا وهدأت الكثير من الأمور وتلاقت الجدتان لامي وأبي وعرفن سبب خراب هذا البيت المتماسك ،بقيام تلك الحاقدة بتوليفة سحرها الخرائبي.سحرني الفضول أن اعرف كل شيء وذهبت معهن الى إحدى العرافات لتقول لهن :

- سيأتي بعد قليل الخبر اليقين .... نفس المشهد لذلك الساحر جاءت العرافة بصحن ووضعت فيه ماء عاديا من إبريق فضي اللون وجاءت بوشاح اخضر وضعته فوق الصحن وبدأت تغرد بهمس وتفرفر برأسها والماء تحت الوشاح كأنه يغلي ويرتفع شيئا فشيئا حتى دخل علينا طفل صغير رفع الغطاء والماء كأنه تراب في درجة الغليان ليأخذ شيئا طائفا ،عبارة عن ورقة داخل كيس من (النايلون) مليء بالطين .. هدأت العرافة لتقول :

- طبع البشر الخيانة والغدر وما جرى على هذا الإنسان ظلم بشري، واعتقد من اقرب الناس إليه ليس من عمل العمل ببعيد.

قالت جدتي :

- هل تستطيعين فكَّه .

- انه بين يدي، والأمور سترجع لطبيعتها بمجرد حرق هذه الورقة.

وهكذا، وصلت الجدتان للحقيقة دون أن يعلما أحدا لأنهما تعرفان تفاصيل ما تقوم به تلك الشذوذ الحاقدة على البيوت الآمنة والسعيدة... بقي الأهم الاكبر كيف رجوع أمي الى ابي.تمكنت جدتي التي قاربت السبعين من حل اللغز الثاني حين استعانت بشخص على شاكلة السحار ولكن بالصورة الايجابية لتجد الخراب الذي سعت اليه (المهووسة) بأذية الناس تلك الصفراء الذميمة.... حدد الساحر مكانا دقيقا لوجود السحر في بيتنا لا يخطر ببال احد وهو التنور... ذهبت جدتي الى المكان وأخرجت دمية من طين سحقتها برجلها ليخرج شعر أمي الذي قصه ذلك الحقير ابنها .... قرر أبي عودة أمي بعد رحلة عذاب وحرمان ومرض... لكنها قررت أن تبتعد عن اقربائها سبع ولايات .ونفذ لها الأمر ... ومرت سنون طوال وتغيرت الأحوال لكن لم تبرح ذهني تلك الأحداث العصيبة التي عايشتها أمي رحمها الباري مع قريبتنا لتخرج من صلبها مواصفات متطابقة لتلك المتوحشة ولكن القدر بالمرصاد ليظهر العديد ممن يملكن نفس الهواجس اللاانسانية رغم إن نسلهن واحد ودينهن مشترك ومرجعهن لجسد واحد، ولكن احداهن تضرب الأخرى بالسحر في حياة ولا حتى في الخيال.

نذور الشياطين

أيَّ باب بعد أطرق؟ ،وأي جهة استعين بها ؟، ها هم الأطباء يعجزون عن تثبيت ابني في رحم أمه، وعجز الطب الروحاني عنه أيضا ،من يساعدني لحل أزمتي ،كل الأشياء قبلتها وكل الأمور ذهبت إليها حتى النذور أقمتها ولم يعش لي بنت أو ولد ، احلم أن أكون أبا ... وقد مرَّ على زواجي عشر سنين وكل سنة ادفن فيها ابني الذي لم يخرج للحياة إلا وهو متوفى في رحم أمه ، هناك من يقول : فيها مرض (خناق البزازين) وأخر يقول ضعف جسدي عام وأخر.. وأخر... وكثرت الأقاويل ولم يعد لي صبر عليها إنني مؤمن بان ليس هناك مستحيل لابد من حل ويقيني سأصل إليه مهما كان...لملمت أشيائي ورحلت أطرق من جديد أبواب الأطباء ومحلات طب الإعشاب حتى أرشدني شخص يبدو عليه علامات البداوة من طريقة كلامه أن اذهب الى شخص يتمتع بصفات خارقة في الوصفات السحرية وهو عارف معروف على مستوى النساء ويقطن في أقاصي المدينة خوفا من السلطات، ومن فوري ذهبت إلى المكان حسب ما وصفه لي البدوي.. مباشرة عرفته لكثرة الحناء على الباب والجدران المحيطة بها وهو بيت متواضع خالٍ تماما من الأثاث مكتفي صاحبه بمفروشات متواضعة من جريد النخيل جلست انتظر دوري ودخلت عليه وهو فارع الطلعة مغطى الرأس ذو لحية مرسومة على وجهه المستنير الأبيض خلفه رايات ملونة بيض وخضر وحمر ... نظر إليه مبتسما وقال : تفضل ماذا تريد؟.... شرحت له ألم مصيبتي وكل ما فعلته من اجل الفوز بطفل يحمل اسمي فضحك عليّ وقال : عندي الحل .

- أرجوك قل ما هو،وكل ما املك لك ..!

- قد لا تستوعب ما سأقوله لك ،وماذا عليك أن تفعل كي يعيش في رحم زوجتك طفلك .

- سأتحمل كل ما تريده مني .

ولكن لم أتوقع ما قاله ولم يخطر ببالي أبدا ما هذا الطلب الغريب وما علاقة الشيطان بابني وأين أجده وهذا غير معقول ولم اسمع به أبدا ماذا سيقول عني الناس إن وافقته ،عليّ أن اعرف هدفه بوضوح .

- لماذا انذر نذري للشيطان وأنا الذي طرقت كل أبواب الصالحين ورقبتي التوت من رفع راسي إلى السماء متوسلا من الباري المعطي .

- قلت لك لا تفهمني وان جادلتك كفرتني بالخالق.

- أنا لست داعية لكي احكم عليك.

- إذن ماذا يمثل الشيطان بالنسبة لك؟

- الشيطان عدو مبين للإسلام والمسلمين.

- وماذا تعرف عنه بعد ؟

- انه مخلوق اسمه إبليس لعنه الله في كتبه المنزلة جمعاء

- أليس هو ملاكا من الملائكة وكان يخدم الرب قبل ادم وحواء.

- إسرائيل كانت مفضلة أيضا عند الرب ويعتبرون أنفسهم أفضل الناس وكل الدسائس والمؤامرات تخرج من بطونهم المريضة وتعلم منهم بعض العرب وأصبحوا تابعين لهم ومقلدين في الإرهاب والقتل ،ودائما يطلق على اكبر دولة في العالم قوةً، بالشيطان وهي الدولة الوحيدة التي تصدر الشياطين الى العالم العربي وغيره حفاظا على مستقبلها .

- أتريد أن يكون نذري لهم كدولة .

ضحك ملء فمه ونهض وهو يشير اليّ بإبهامه ...

- ما أكثر الشياطين في بلادي....أتعلم في داخل كل منا شيطان نقاومه بدرجات دون أن نشعر به فقد نتحسسه من خلال أعمالنا اليومية بشتى أنواعها وأشكالها ونادرا من لا تجد الشيطان في داخله، حتى من يدعون المثالية في المعتقدات الدينية يناورون في متطلباتهم ورغباتهم ويشرعون الفتاوى حسب احتياجاتهم الآنية أي يضعون لأنفسهم حيلا شرعية يراوغون بها على القانون السماوي المنزل بثوابت الموجودات بمتغيرات الأحكام والكل يفسر الدين لرغباته ويصدقها البسطاء من الناس ويجعلون منهم أولياء صالحين وأُلي الأمر يسيرون خلفهم بعمى البصيرة والقلب وهؤلاء نواة الشيطان على الأرض...وطبيعة الشيطان تنم عن ذكاء مفرط فيضيع الحابل والنابل على الموحدين الصادقين والعارفين الخالق حق المعرفة...هذه هي حياتك المثالية الوجودية الحالية. انه يقربني من الشيطان وأقنعني بلحظات إن الشيطان هو الإنسان نفسه...فمن يصنع الشر هو شيطان ومن يقتل هو شيطان،خراب بلدي وقتل شعبي نتيجة غزو الشيطان له.

إذن ما أكثر الشياطين فعلا في بلادي كل يوم يقتلون وينهبون ويفجرون ويتآمرون على تحطيمها وتأخير تقدمها غزوها في كل أشيائها ونفوسها فأصبح المعلم يرتشي فهو شيطان والطبيب جعل من مهنته الإنسانية تجارة رابحة يقتل بها الضعفاء من

الشعب فهو شيطان التجار يستوردون ارخص البضائع من مناشئ رخيصة هم شياطين، كذب السياسيين اليومي شيطنة سياسية وفتاوى قاسية تحول المرء الى شيطان ديني ظاهره شيء وباطنه شيء أخر ... لم أعط نذري لتتحقق رغبتي ... نظرت اليه وقلت في سري هو اقرب الشياطين لي فليأخذ النذر الذي يطلبه مني ... فنطقت.

- إذن قل ماذا افعل وأنا ألبي ما تطلب.

- هل لديك سيف وحصان.

- كلا ... ولكن ممكن أن اقتنيها من السوق.

- افعل ذلك ... واذهب الى مدينة يكثر فيها القتل وهناك ستجد الشيطان ينتظرك.

- أي مدينة هذه وأي شيطان سأعرف ... وضح لي الأمر ودعني أصدقك.

- هناك في جنوب البلاد عشيرتان كانتا تعيشان بسلام حتى دخل الشيطان بينهما وأصبحتا تتقاتلان بين فينة وأخرى، اذهب هناك وراقب الأمر وستسير وحدك خلف الشيطان وأعطه السيف والحصان.

حزمت أمري وذهبت فوجدت العشيرتين تستعدان للقتال ففي كل ليلة تغير الواحدة على الأخرى وعند الوصول الى نقطة البدء ترفع الرايات وترجع العشيرتان دون قتال،لكون تربطهما صلة نسب وعمومة...وهكذا الحال منذ سنين تستعرض العشيرتان قوتهما دون قتال،وفي تلك الليلة التي توسطها ذلك الغراب الذي توشح ملبسه بلون الليل،وغارت إحدى العشيرتين بقوة،وتنسحب ببطء،ليقول عند رجوعها كلمة هزت في نفوس الرجال الغيرة والحقد وتقلب المواجع وهو يكررها بعلو صوته : جبناء نسوان

علت أصوات الرجال والتحمت العشيرتان في قتال شرس،ضروس ليس له بداية وتحده نهاية...ومن فوري وبلا شعور سرت وراء الغراب وقدمت نذري له ورجعت أحدث نفسي كالمجنون عن أشباه الشياطين من الإنس ونسيت ما احلم به حتى شعرت زوجتي بمتغيرات نفسية توحي بأنها حامل وعرفت ان نذري تحقق،واكتشفت ان خراب بلادي أيضا بدأ بالشيطان وانتهى بكم من الشياطين بمختلف الأشكال والألوان يجمعهما تصرف واحد هو تحطيم كل ما هو جميل ولد وسيولد في بلادي....

موت تاجر

لم يكن الحدث عاديا في ذلك اليوم الممطر بزخات خفيفة تجتمع الناس تحتها تنتظر خروج جثمان التاجر (صادق المحسن) الذي يغذي بتجارته مناطق العراق بأسرها والتي يستوردها من جميع مناطق العالم ، وبعد المتغيرات السياسية التي حصلت في العراق ورحيل أقسى رجل في العالم عرفه التاريخ العربي لأن العالم الغربي لهم طغاتهم ،ويذكرهم البعض ممن يسجلون تاريخ الرؤساء كالإبطال احتلوا العالم وقتلوا ورحلوا وبقيت أسماؤهم فقط.و(صادق المحسن)من اجله أغلقت جميع المحلات التجارية التي تتعامل معه ، ووضعت لافتات في كل مكان بلونها الأسود وبروز كلمة رحل الى دار حقه المحسن المرحوم صادق المحسن باللون الأصفر...تتكاثر المعارف والتجار الصغار وأصحاب المحلات البسيطة التي كانت تأخذ البضاعة منه بالتقسيط . خرج الجثمان من قصره والباكي الوحيد عليه ابنه الصغير وهو يصرخ بأعلى صوته وهو متمسك بجنازة والده : سيدفنونك دون تغسيل أو صلاة وستنزل الى قبرك دون تلقين .

ساد بين الحضور لغط بين رافض وقابل، احدهم يقول لنتخلص منه هو من افسد بضاعة العراق باتفاقاته المشبوهة مع مصانع العالم حين يطلب مواصفات رديئة لا تكلف نقلها (فلاسين) ويبيعها بآلاف الدنانير على كونها من مناشئ عالمية ، لكن طاغية العراق رغم قسوته كان لا يسمح لتاجر أن يستورد بضاعة إلا من مناشئ عالمية معروفة بالجودة ، رحمه الله (خرب) بضاعة العراق .

بعد أن تدخل من يخافون الله اقنعوا المعترضين على دفنه مباشرة أن يغتسل ويلقن ويكرم دفنه ولا يزكي الأنفس إلا باريها ... واتجهت السيارات نحو اقرب مغتسل وبدأت مراسيم تغسيل التاجر ، ومن ثم لف في كفن ووضع في جنازة المغتسل المكتوب عليها (الفاتحة) للمرحوم ووضعت صورته على مقدمة الجنازة وقبل حمله اخرج ابنه الكبير مبلغا ضخما من المال ليعطيه لمن قام بتغسيل والده .

قال :

- نحن نعمل لوجه الله سبحانه وتعالى لا نتقاضى أجرا على عملنا وإذا أردت أن تتبرع أعط مبلغك لمن لا يستطيعون شراء كفن لموتاهم .

- أين يقع بيته ؟

- في منطقة السدة .

وبعد تحديد المكان انطلقت السيارات الفارهة والمظللة وهي تحمل في داخلها نعش صادق المحسن كون البرد قارسا والسماء تبعث بين حين وحين وفرها برذاذ المطر البارد . وصلت السيارات الى المنطقة المشار اليها لتدخل بسرعة رغم ضيق فرعها وسوء حال شارعها الممتلئ بالأطيان والأوساخ ... أثارت السيارات علامات فرح على أهالي المنطقة وظنوا أنه مسؤول كبير في الدولة انتبه لسوء خدمات هذه البقعة المنسية من مناطق بغداد وستأتي الكهرباء وسيصنعون مجاري ويسحبون لكل بيت حنفيات من المياه الصالحة للشرب وأكيد سيبلطون الشارع ، ما فرق منطقتهم عن المناطق الأخرى إذا ما أمطرت السماء تختفي مياهها وكأن السماء لم تمطر ابدا ، جاءت الفرصة لهم لتخرج هذه المنطقة من البؤس والحرمان الحقيقي الذي تعيشه في بلد لا تحصى خيراته .

وقفت السيارات على شكل موكب لشخص مهم جدا في الدولة ، وترجل شخص يرتدي بدلة سوداء أنيقة احتار أين يقف فالأرض مليئة بالطين ... ركض احد شباب المنطقة حاملا في يده (طابوقة) ليقف عليها الرجل دون أن يتسخ حذاؤه ، وما ان استقر عليها حتى بادره بالسؤال:

- أين يقع بيت (حسين زبد) ، فأجابه الشاب نهاية المنطقة في غرفة صغيرة بابها من الحديد المشبك يغطيها قماش اخضر .

أكمل الموكب مسيره الى مكان حسين زبد وترجل الشخص نفسه ليرفع صوته (عمي حسين ... أبو علي) ...خرج حسين ولم يفاجأ بالموكب المهيب فكر أنهم يريدون كفنا والحمد الله لديه منه الكثير .

- أهلا وسهلا ،وصلتوا (والي تريدونه) موجود .

- لا يا عم نحن نريد أن نمنحك إكرامية.

- هل أنت حقا حسين زبد المتبرع بالأكفان للمغتسل .

- نعم تفضل ... لكن غرفتي صغيرة وليس فيها سوى أولادي الصغار وزوجتي وإلا لضيفتكم جميعا .

أجابه احدهم :خذ هذه الحقيبة ففيها مبلغ من المال ثمن للكفن الذي كفنا به والدنا المرحوم .قال له حسين زبد : أنا لا اخذ مالا إزاء تبرعي اذهبوا وادفنوا (ميتكم) واذكروا والدي بقراءة سورة الفاتحة واسمه على كفن أبيكم .

- نحن جئناك لنمنحك مالا لا أن تعطينا دروسا في الأخلاق .

- انتم فعلا تحتاجون إلى دروس في الأخلاق وليس درسا واحدا ... خذوا مالكم وارحلوا انتم غير شرفاء والذي يراكم بهذه الهالة يعتقد إنكم جئتم من اجل إنقاذ المنطقة وشبابها الذين يعمل اغلبهم عمالا يوما يكسبون وأياما يعيشون على بركة الخالق الجبار موزع الأرزاق لتكسبوا أجرا من اجل هؤلاء البؤساء من العاطلين عن العمل والساكنين بأتعس الأمكنة في بغداد التي يتصورها العالم ام الخيرات ولكنكم بغير شرف ومالكم غير نظيف ارحلوا قبل أن (الم) عليكم أهالي المنطقة ليرجموكم بالحجارة حتى نهاية الشارع .

هنا نزل الابن الأصغر لصادق المحسن واتجه يقبل يد حسين زبد ان يذكر والده بخير .... أنت فقير جدا كيف تتبرع بالأكفان من اجل صدقة جارية لوالدك وأنت في هذا البؤس والعوز.

ضحك حسين زبد وامسك بيد الشاب الصغير المتألم الوحيد على والده التاجر وقال له سأشرح لك وتعلم كي يغفر الله لأبيك الراحل .... أنا عامل نجارة وأجرتي اليومية هي خمسة عشر دينارا أجزئها إلى ثلاثة أجزاء، أولا إيجار هذه الغرفة البائسة وثانيا ارجع ببعض البقالة لعائلتي من طعام يوميا ..اما الخمسة الأخيرة اجمعها في صندوق وفي نهاية كل عام اشتري أكفانا بما جمعت وأعطيها الى المغتسل كي تبقى صدقة جارية لوالدي ... ارحل وساعد من تساعد من الفقراء والمحتاجين ثوابا لأبيك وذكرهم بقراءة سورة الفاتحة على روحه ... رجع الموكب بسرعة جنونية كسا برجوعه الجنوني جدران ووجوه المطلين برؤوسهم لمعرفة ماذا يريد هذا المسؤول وجماعته من حسين زبد.

وفي منتصف ليلة زيارة المسؤول علا صراخ زوجة حسين زبد دون أن يخرج أبناء وكبار ونساء المنطقة ... وفي صباح قارس حمل حسين زبد على عربة يجرها حمار ملفوفا(ببطانية) ممزقة الى جانبه زوجته وأبناؤه :أخرجوهم أهالي المنطقة ظنا منهم بان حسين زبد ذلك الخير المتدين جاسوس (علاس) لقتل اغلب أبنائهم . ..وصلت جثته الى نفس المغتسل الذي اغتسل به صادق المحسن ليتفاجأ صاحب المغتسل بموت حسين زبد طعنا بسكاكين لا حدود لها ودفن بنفس المغتسل وعملت زوجته لتغسيل الموتى من النساء وأبناؤه الصغار يخدمون المغتسل.

مؤامرة الغرفة

لغط من نساء ينتمين إلى عائلة واحدة وبعض من صويحباتهن من المعارف والجيران،وعدد لا يحصى بسهولة من الأطفال في غرفة ضيقة لا تتجاوز مساحتها ستة أمتار مكعبة ،جدارها القديم يعلن عن رائحة للرطوبة عالية تحيط بجميع أجوائها ولا يغير عفونة الجو سوى ذلك الشباك الخشبي المطل على فرع ضيق، ترتفع منه (مبردة) هواء تزخ أمطارا من جميع جوانبها لاستمرارية ضخ الماء إليها ... تتزايد أعداد النساء والأطفال ويتلاطم مدهم نحو الممر الضيق للبيت، الكل يلامس الكل، الصدور الناهدات بعضها متداخل مع بعضها متآخية، بينما هناك صغار يبلغون الحلم يتلذذون بهذا التلامس الغريزي... وأخريات يتعاتبن بالصياح والضرب ومنهن يتدخلن للصلح من اجل استمرار المراسيم .

جاء صوت من خلف الباب : السيد قادم ...(فهلهلت) النساء وتداخلت الأجساد أكثر وزحفت إلى باحة الدار وضاقت الغرفة حد انقطاع النفس،والجميع يراقب عن كثب حركات دخول السيد الذي وصل بصعوبة إلى داخل الغرفة بعد أن انقطعت أنفاسه من التكبيرات والاستغفار فقال بعد أن جلس على حافة السرير الذي اخرج صوتا يقشعر له البدن :

- أين والد العروس ووالد العريس .

جاء الرد سريعا والد العروس متوفى ووالد العريس تنوب عنه العمة

- من ولي أمر العروس إذن ؟

جاءت امرأة ممتلئة القوام،قصيرة، تظهر ساعديها بكم قصير من الثوب الكستنائي الذي ترتديه فأجابت بتكبر :أنا أمها

تفحصها السيد جيدا واستغفر الله وقال: وأين العروس.... جاءت العروس مع غمامة من النساء المحيطات بها وهن يطلقن الأصوات بكثافة وهي مزينة بفستان وردي قصير وباقة ورد تعلو رأسها...بهت وشهق السيد لرؤيتها وانتفض واقفا وهو يقول لنفسه : يا الهي إنها طفلة ،ما هذا التناقض عيناها حزينتان،وتصطنع الضحكة.

بدأ القيل والقال ينساب من النسوة احدهن قالت:

- مسكينة صغيرة لا تتحمل الزواج .

جاءها الرد من صاحبتها:

- إنها تريد أن تتخلص من جحود أمها الغاوية للرجال على اختلاف أعمارهم من اجل الحصول على أموال وهي تبيع نفسها باستمرار !!

ضحكن بصوت منخفض ، ليعلو صوت السيد يسأل عن العريس .. جاء العريس ذو السمرة الجميلة والوجه الدائري الموحي بالحسن والدلال والنعم،ولكن الزمن قد رسم على شكله وسام التمرد على عائلته،بعد أن شرب من كأس سحرهن القاسي،فظهرت على محياه الخطوط البيض واضحة على الحاجبين مع تساقط الشعر من الرأس والشارب فيبدو للناظر اليه رجلا أملس تماما،ورغم ذلك كله، فهو يمتلك جاذبية ساحرة وقوة جسدية كبيرة...تمت مراسيم كتابة العقد في جو غرائبي ومثير للدهشة بما فيه من مفاجأة ومداخلات خارجة عن العرف والتقاليد،بل انحطاط أخلاقي ظاهر على النساء أكثر من الرجال،وبمجرد أن أعلن السيد مأذونية الزواج بشكله العقائدي حتى علت (هلاهل) الأحبة وسط معركة شرسة من الرؤوس بين بنات العم في باحة الدار لمعرفة العروس (سر مهر)وصالحة للاستعمال،وتداخلت أطراف لفك النزاع النسائي الحاد بكلام مفضوح وبذيء وعلني،وعقد الاجتماع وسط الدار وأمام الجميع الذي هو بانتظار العريس أن يرفع رايته البيضاء ملطخة بالدماء لكسر الشك باليقين ،ساد الصمت في أرجاء البيت والكل ينتظر الراية والعيون تنظر إلى باب الغرفة وأعلنت مراهنات غير شرعية بين بعض من النساء لغرض الشماتة ،فيما إذا كانت العروس كما توقعت عمة العريس ،ومع هذه الأحداث المتوترة جاءت امرأة وقورة وقوية اتجهت الأنظار إليها وبعض النسوة حولها وخلفها يردن منها الحل هل جاءت لتلغي العرس بصفتها أم العريس بعد أن تركها ولدها الطائش الذي نسي أمه وارتمى بحضن عمته التي اختارت له هذا الموقف الصعب ... دخلت الأم الغرفة وخلفها أسراب النساء المتجادلات منهن ضاحكات على الموقف وأخريات خائفات من الفضيحة التي قد تحدث ،اجتمع شمل العائلة المتنافرة في غرفة واحدة ... العروس والعريس كأنهما صنمان من طين حر تتلاعب به تلك العمة كيفما تشاء وتوقف حين برزت الأم فجأة وهي تشاهد مصير ابنها والى جانبه عروس بعمر الورد كأنها مذبوحة بسكاكين النساء من حولها صرخت بهن وأخرجتهن بالقوة وبقيت العمة التي أجلست العريس وهي تقول له :

- اجعل ذراعك قوية وأعلن الراية بسرعة ....

الأم أخذت تخرج النساء وتطرد العمة ،حتى سرير العرسان لم يخل من الصبية حين سمعت الأم الباكية على مصير ابنها صوتا غريبا تحته لتخرجهم من الغرفة تحت أمطار من الضربات و(الهلاهيل)... ومرة أخرى ساد الصمت حين خرجت الأم من الغرفة لتجلس على حافة درج وتشعل سيكارة وتنفث دخانها بعصبية وتوتر

واضحين...وطال الانتظار ولم تعلن النتيجة ،الأم خرجت ولم تعد لكونها متأكدة من إن العريس خيب عمته ولم يستطع تحقيق مرادها...وبدأ رحيل النسوة مصحوبا بالشك من قدرته وأخريات يعتبرن هذا الجماع الغرائبي صدمة نفسية عطلت الكثير من الحواس الجسدية فيه...ورسي الليل وتلته سبع سنين من الليالي ولم يجنِ العريس ثمار مؤامرة الغرفة...

مطلوب عشائريا

لم يكن يحب حمل السلاح ، كان يكتفي بالعصا الغليظة يلوح بها ذات اليمين وذات الشمال وهو يدخل في عمق البستان الملغوم بالفاكهة بأنواعها وهي تتلألأ في أغصانها لتعطي لوحة تشكيلية ربانية الفن تثير جمال الناظرين وهي تنحني نحو الأرض لثقل حملها وتتكئ بعضها على جذوع النخيل لتشكل نشرة ضوئية من مصابيح ملونة متوهجة رغم عتمة الليل، أثاره منظر شجرة التفاح الممتلئة عن بكرة أبيها جلس القرفصاء أمامها وهو يحسب كمياتها بخبرة فلاح قضى عمره في مهنة الضمان لكافة الفواكه وأنواع التمر، اخرج من جيبه علبة الدخان وأشعل سيكارة ونفث دخانها إلى أعالي النخيل وهو يبتسم للخير القادم...وفجأة رمى من يده السيكارة وجلس أرضا وهو يشاهد في سكون البستان امرأة ورجلا جالسين وسط ساقية البستان يتغزلان..لم يحرك ساكنا بل بقي يراقب عن كثب ماذا يفعلان ... وسأل نفسه العديد من الأسئلة من هما ؟ ولماذا هذه البستان بالذات؟ عليّ الاقتراب أكثر لأرى وجهيهما عن قرب..واخذ يتنقل ببطء شديد وأصبح على بعد أمتار عنهما شاهد الشاب وهو يرتدي ملبسا عشائريا ،أما هي فكانت تتزين بالعباءة ويتوهج وجهها جمالا...عرفهما على الفور إنهما أولاد شيوخ المنطقة والشاب ابن مالك البستان...لا يعرف ماذا يفعل وأي تصرف يتجه إليه أنها ورطة حقيقية وسط هذا الليل الذي لم ينتصف بعد وهما يجلسان وسط هذه الخضرة وتعلوهما شجرتان كبيرتان من فاكهة الرمان مسلط عليهما بشكل عامودي القمر في منتصف ربيعه يبثهما ضوءا ربانيا ليشكلا منظرا من جنة الأرض يلتقي بها العشاق من زمن حواء وآدم والفرق أن حواء وآدم كانا تحت شجرة التفاح الممنوع قطفها وهما تحت شجرة الرمان... سمع صوتها وهي تطلب أن يقطف لها رمانة فأجابها في همس.

- كل مرة تطلبين نفس الطلب وأنا اكرر عليك إن الفاكهة ليس ملكنا إنها مباعة وهي على أشجارها، فقط البستان هي ملك أبي .

ماذا ؟إنهما دائما يلتقيان هنا وانا لا اعلم .. إذن شريكي على علم بذلك ... لماذا لم يقل لي سوف أعاتبه على ذلك ... ولكن شريكي هادي عصبي جدا لا اصدق إن يقبل بذلك .... حبس أنفاسه ولم يستطع كتمانها فأطلق صوتا عفويا انتبه إليه ابن الشيخ فسحب مسدسه واختفت البنت وسط الساقية والخضرة وأصبح في وضع حرج جدا كلاهما ينتظر رد فعل الأخر فقال ابن الشيخ بصوت منخفض يدل على خوفه

- من هناك أخرج وإلا أطلقت النار عليك .

- اهدأ يا وصفي أنا أبو القواسم الكاظمي ضامن هذا البستان ... اعذرني فان حراستي هذه الليلة وكان عليك إخباري بدخولك البستان.

- أسف أبو القواسم الأمر في غاية السرية إذا عرف والدها ووالدي يقتلاننا ونحن احدنا يحب الأخر من زمن والخلاف قائم بين عائلتينا وأنت تعرف المصير ونحن لا نلتقي كل يوم بل كل منتصف شهر مثل هذا اليوم وفي نفس المكان لسفر والدي وانشغال أبيها شيخ مزعل الوهاب.

خرج أبو القواسم وصافح وصفي وأعطى حبيبته الرمانة وقال لهم .

- أنتما تعملان ما يغضب الله أولا هذه المرة الأخيرة التي اسمح لكما بها باللقاء وسأكتم فعلتكما هذه ... صحيح البستان ملك أبيك شيخ مردان الحايض ولكنها الآن ملك الضامن يا ابني ... اسمع سأخرج أنا هذه الساعة من البستان واذهب إلى مضيف الشيخ مردان واخرج بعدي بنصف ساعة أو أكثر كي لا نقع في خطأ ندفع ثمنه أرواحنا.

تركهما أبو القواسم مسرعا لا يلتفت إلى الوراء وهو يتوجس الخطر في أي لحظة وعند دخوله المضيف وجده خاليا من أي شخص معتقدا إن الجميع نائمون فمجرد جلوسه دخل عليه أشخاص من عشيرة مردان مرحبين به حاملين إليه الماء والزاد واخذ يحدثهم عن حكايات أيام زمان وكيف كانت البساتين آنذاك . حتى غلب عليه النعاس فنام حتى الصباح تناول فطوره وأردف راجعا إلى البستان والقلق يساوره والشكوك تحيط به عن تلك الليلة وأحداثها الغريبة ... جاء شريكه هادي واستلم منه البستان بعد أن تجولا فيه، ووقفا بنفس المكان الذي كانا يجلسان فيه الليلة الماضية،والذي حصل كأنه حلم من أحلام العشق والغرام فضحك ملء فمه..وينظر إليه (هادي) متعجبا عن هوسه وهو (يفر فر) بكلتا يديه .

وجاء يوم مناوبته في حراسة البستان وقبل أن يخرج من داره جاء إليه شريكه هادي ليقول له:

- ماذا فعلت؟ شيخ مردان وشيخ مزعل يطلبانك فورا

- ألم تعلم لماذا ؟

- كلا ولكن البستان ملغومة بأفراد العشيرتين منذ ليلة أمس وحتى لاح الفجر والبنادق محشوة بالرصاص .

ذهب أبو القواسم إلى البستان فوجد شيخ مردان بانتظاره والشرار يتطاير من عينيه فقال له فور وصوله :

- أبا القواسم هل أنت من سمح لوصفي بالدخول إلى البستان مع بنت الشيخ مزعل .

- ما هذا الكلام يا شيخ... هذا كلام جارح كيف تتحدث معي وكأني (....) أنا إنسان مكافح وشريف وابن عشائر ولا ارتضي أي فعل شين من هذه الأفعال التي لا تشرف والذي نقل لك الخبر هو إنسان سوء وواشٍ وأنا أطالبه عشائريا لان يوم أول أمس كنت في حالة مرضية ألمت بي وذهبت إلى مضيفك ونمت الليل كله هناك وأبناؤك قاموا بالواجب وأكثر .

تفاجأ الشيخ والحاضرون من قوة رد أبي القواسم والدفاع عن نفسه وابهر الحاضرين بما قاله ... هذا ما فكر فيه أبو القواسم حين طلب من وصفي وحبيبته البقاء لوقت بعده تحسبا من أن يراهم احد وفعلا قد شاهدهم احد أفراد عشيرة مزعل وأصبحت العشيرتان على حافة الحرب العشائرية فيما إذا اثبت لقاء وصفي بابنة شيخ مردان إما أن يقتلا بالعرف العشائري أو حرب لا تنطفئ إلا بانتهاء إحدى العشيرتين .... أما نكران أبي القواسم جاء عن خبرة في الأمور العشائرية ويعرف ماذا يريد من كل هذا متوسم بالقول إن الله ستار يحب الساترين ... فجاءه صوت الشيخ مردان :

- أنت ستقسم اليمين أمام العارفة.الذي سيكون الحاكم بيني وبين الشيخ مزعل .

- تأمر شيخ ما يكون خاطرك إلا طيب .

وفعلا اجتمعت العشيرتان في مضيف محايد وتوسطتهما العارفة ... وظل وصفي قلقا جدا أراد إن يعرف بماذا يفكر فيه أبو القواسم؟ وقبل دخول أبي القواسم إلى مضيف الحكم شاهده وصفي شاخصا بصره وأبو القواسم مبتسم وهو يردد ستنال ما تتمناه هذه الليلة يا وصفي كن قويا. وجاء صوت ينادي بدخول أبي القواسم للقسم أمام العارفة وأدى القسم بعدم رؤيته للعشاق ولم يسمح لأي احد دخول البستان ... فكذبت العارفة الشاهد من أل مزعل فكان الحكم إما أن يقتلا أو يتزوجا تحاشيا للفتن المودية للقتال والخراب ... أعلنت العارفة موافقة الشيخين زواج الحبيبين بأقرب وقت ... وتزوجا فعلا ورزقا بنين وبنات وهذا كان بحكمة أبي القواسم الذي كان يعلم إن حفظ السر وكذب الشاهد ونكر الحبيبين تكون النتيجة العشائرية هي الزواج المحتم ... ولم يقضِ كثيرا أبو القواسم أيامه في بستان الشيخ مردان كضامن لان في ليلة من ليال الشتاء وبحراسة مشتركة بين هادي وأبي القواسم وهم

يحصدون المحاصيل لغرض بيعها سمعا صوتا في الجهة الثانية من البستان وهي الجهة القريبة إلى لقاء الأحبة القديم قال أبو القواسم :

- هادي لا تستعجل الأمور وأنت حامل هذا السلاح القاتل قد يكونان عاشقين جديدين في بستان مردان .

صرخ هادي بصوت منخفض لصوص يسرقون الفاكهة وهناك رئيس لهم يعلو سور البستان وآخرون يسرقون

- أطلق فوق رأسه النار ليهرب ونمسك الباقين

- ماذا تقول بيدي سلاح وأشاهد لصوصا يسرقون ولا اقتل احدهم خذ يا رئيس الحراميه .

سقط أرضا ميتا بعد ان أصابه هادي برأسه وفر الباقون وفر أيضا أبو القواسم وسجن هادي خمس عشرة سنة وكتب على باب البستان مطلوب (ضامنها)عشائريا وخسروا كل شيء بلحظة بعد أن زرع أبو القواسم الثقة بين الفلاحين والعشائر وهدمها بسوء تصرف هادي ببندقيته التي لم تخطئ طلقتها الأولى .

هكذا مسح عينيه أبو القواسم بمنديله وهو يقرأ عبارة، العمارة مطلوبة عشائريا ... لفتت هذه العبارة نظره واعادته إلى أكثر من خمسين سنة حين ترك البستان بنفس العبارة ليقول في نفسه : موجة العصر الحديث تعيد ذكريات عشائرية قديمة ظننت قد انتهت مع تطور الزمن بعد أن قضت الجمهورية على الإقطاعيين وأرست قواعد القانون في البلاد ... إذن في بلدي يموت القانون أحيانا لتعيد العشائر سطوتها ليس في الأرياف والقرى فقط بل دخلت المدن المتحضرة لتكون عشائر مدنية تتحدى القانون وان كان حيا.

كواليس

هوس جنوني يسحبها نحو رجل منحته حياتها بأكملها، وأي حياة... حياة أن تكون أو لا تكون... أين تبحثين عنه وسط هذا الخراب من المتسكعين على أرصفة الميدان. ترعبها أصوات البائعة وهم (يدللون) على بضاعتهم بتداخل مثير.

- قميص وبنطلون لزعيم عراقي.

- حذاء مسؤول كان كبيرا في السلطة السابقة .

- رتب عسكرية وميداليات فضية وذهبية .

هذه الأصوات تثير هوسها وتخيفها ، وكأنها تنادي عليها للانتباه أو مجرد الرؤية ، لكنها سارت بوسطهم بشكل مستقيم كلما تقترب خطوة يُفسح لها خطوتان وكأنها قائد عسكري وسط رعية لم يخطر ببالهم أبدا أن تمر من أمامهم امرأة بهذا الشكل المستوفي لشروط الجمال والأناقة ... لتدخل في أجواء شارع المتنبي .

ها هو الشارع الذي طالما حلمت بالذهاب إليه لسنين طوال... يا الهي انه مزدحم بأناس يختلفون عما قبلهم، هذا الأستاذ معي بالجامعة وتلك السيدة أشاهدها دائما في التلفاز وهذا محامٍ كبير، دائما صوته وجسمه متلائمان انه يجهر بصوته عن أي حدث ويحيله إلى قضية قانونية. ما هذا الكم الهائل من الكتب التي تفترش الأرض ،عناوينها مثيرة ... ولكنني جئت لهدف محدد أن أجده حيا فالموت في بلدي لم يعد قضية في كل لحظة تسمع رعدا سماويا في قلب الصيف ليقول لك احدهم لا تخف أنها سيارة مفخخة قد انفجرت وأخذت معها أرواحا لا تعد ولا تحصى لأن عصفها قد ينقلك من منطقة إلى أخرى لترحل دون الم وتدفن أعضاؤك وبقاياك مشتركة مع الآخرين.

قالوا لي إن المقهى الذي يعشق الجلوس فيها نهاية هذا الشارع المعرفي الجميل ... صوت عال يمسك كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ويعلن بيعه لجمهرة من الواقفين أمام مكتبته وهو يعلوهم بكرسي.. وقفت أتأمل هذا الحدث الجديد على بصيرتي ،هذا يزيد ألفا والأخر نصفا وهكذا اكتشفت أول مرة في حياتي هناك مزايدات علنية لبيع الكتب الثمينة والنادرة وهو يعرِّف بمؤلفها ودار نشرها... أتمنى

أن التقي أستاذي ليعرفني أكثر على هذا الشارع وخفاياه. ها هي المقهى مليئة بالمثقفين كيف لي الجرأة على الدخول ،إذن علي إن اسأل .

- أستاذ من فضلك ممكن أن تسال صاحب المقهى عن الراشد اللطيف.

- بكل سرور.

ولكنني شعرت بالرهبة وأنا أمد بصري لطول الشارع الملغوم بالمتواجدين من المثقفين الذين يتهامسون عن أسرار الأدب والصحافة على مختلف مشاربهم.. أين أنا من هؤلاء ؟ ساعية وراء أستاذ هرم يعتقد انه يضحك علي من خلال المبالغ التي يأخذها مني إزاء عمل كتابي.. كيف لي أن أثق به... يا الهي حلم حياتي بين يديه ، مصيري ،مستقبلي الأكاديمي ... قاطعها صوت :

- الأستاذ محمد الفخري صديق الراشد والوحيد الذي يعرف أين هو الآن.

- أهلا وسهلا .

- أهلا ... أجابها محمد الفخري، وهو ينظر إليها بتمعن من رأسها إلى أخمص قدميها وهو يمسح كل دقيقة انفه بحساسية مفرطة تدل على تأثيرات ليلة أمس.

- هل أنت من أقربائه ؟

- نعم ، ولكن ليس بالضبط وإنما من محافظته .أرجوك أستاذ أين أجده .. فانا في حاجة ماسة إليه .

- انه يعاني مرضا منذ فترة وهو راقد في غرفته.

- أين هي غرفته وهل باستطاعتي زيارته أستاذ ؟

- بالتأكيد المكان قريبا جدا ولكنه في حالة صحية متأزمة.

بدأ خيالي يطرح أسئلة وانتابني شعور بالغريزة الحسية التي يناور بها بنظراته وحركاته المرتجفة المستعجلة للإطاحة بالفريسة من أول نظرة .وتمت إجابتي بكياسة ودماثة

- ممكن يوم غد الساعة العاشرة صباحا في الكلية لأنني تأخرت كثيرا هذا اليوم إضافة إلى دخولي هذه المنطقة من بدايتها أشاهد أناسا غرباء يختلفون تماما عن المتواجدين في هذا الشارع الذي وهب حياته للمثقفين.

تفاجأ من طرحي ووقف شاخصا بصره نحوي ويتنهد .

- وليكن، لكِ ذلك انك على حق.

- ما هي أعراض الراشد يا أستاذ ؟

- حرارة، ونحول، ويأس، وإفلاس، وكآبة وغيرها من مفردات الانفلات لشخص يهرب من كل شيء ليجد نفسه وسط الوهم رغم كبر قامته الإبداعية.

رجوعي كان سهلا جدا مع هذا السيل العارم من مريدي الثقافة على أشكالها ، وانفتحت باب القدر لي حين جاء صاحبي بالموعد المشهود الأستاذ محمد الفخري الذي استوعبته وعرفت نيته الغرائزية وكان ينتظر وصولي بفارق الصبر وحين اقتربت منه تغلغل الشك والقلق في صدري

- ها قد وصلنا الفرع الذي يسكن فيه الراشد .

- أين الاستاذ ، هذا شارع مظلم ومخيف وهناك أصوات معارك في ظلمته .

- الناس هنا يعرفونني جيدا وما هذه الأصوات إلا بعض المحتسين والمبتزين ومفرغي جيوب العاملين في بغداد والقانطين هنا من اجل المرأة والخمر ... لا تخافي طالما أنا إلى جانبك كلها خطوات ونصعد إلى الراشد المتشوق إلى قريبته .

- احذر إن تخدعني فانا إنسانة محترمة ومن عائلة معروفة في الحسب والنسب .

- لا تخافي . حذرني الراشد أيضا بنفس التعريفات!

صعدنا سلما ضيقا والظلام دامس حتى وقفنا إزاء باب مفتوح على مصراعيه ودخلنا إلى باحة مغلقة تحتوي على ثلاث غرف مقفلة والرابعة بها إنارة بسيطة .. تراجعت قليلا ووقفت بجانب الباب بغية الهروب وقد سبقني إلى الغرفة بسرعة غريبة وأخذت استرق السمع انفتحت أسارير نفسي وشعرت فجأة بالقوة تسري في جسدي وأنا اسمع صوته الجوهري يقول :

- من قال لك ان تأتي بفتاة إلى غرفتي ؟

- أنها تعرفك جيدا وهي ناقة بيضاء وترغب بي .

- تعرف بأنني مريض ولا أستطيع مغادرة الغرفة ، انك إنسان غريب الأطوار وجائع دائما للنساء كيف يقبلن بك لا ادري.

هنا تأكدت من مكان أستاذي وعرفت نية صاحبه القبيحة ومن فوري دخلت الغرفة .

- سلامات أستاذ راشد سلامات .

- من؟ زينب عاتي ؟أهلا بك تفضلي...غادر أنت أيها (.....) لا أريد إن اسميك أكثر بأقبح الأسماء لكونك الصديق الوحيد القريب على قلبي .

خرج دون ان ينبس بأي كلمة وهو يلتفت حول نفسه ويردد قوله:

- صديقي هل أعود في المساء .

- نعم أين ستذهب كي تنام وأنت لاتملك شيئا...اجلسي يا زينب ، كيف وصلتِ إلى هنا هذا مستحيل..هذا شارع لا تسلم فيه أي فتاة هل أنت بخير.

- نعم بفضل أستاذ محمد...أستاذ جلبت لك بعض الأدوية بعد أن وصفت لي حالتك أستاذ محمد الفخري تناوله حالا، وستصبح بحال جيدة .

تجولت عيناي على أركان الغرفة المبعثرة فيها كل شيء حتى الكرسي الخشبي الذي اجلس عليه كان مكتظا بالكتب والمجلات وقرب الباب مجموعة قناني لأحصر لها ونفايات وأعقاب سكائر وكأن المكان لم ينظف من زمن،رفعت رأسي لأشاهد مروحة قد غير لونها من شدة الأوساخ عليها ... قلت في نفسي وأنا أشاهد الأستاذ الذي بدأ يتناول الدواء:عليّ مساعدته وكسبه أكثر إلى جانبي فنهضت من فوري وبدأت ارتب أشياءه،فجاءني صوته.

- ماذا تفعلين ؟

- أنا امرأة وعليّ تنظيفها .

- أرجوك اتركي كل شيء بمكانه ، هذه الغرفة التي تشاهدينها لأول مرة خرجت الكثير من الأساتذة وهم مرموقون حاليا وأعلام في الثقافة والأدب بل أصحاب مناصب حساسة في الدولة.

شدني الفضول لهذا الكم الهائل من الكتب المتناثرة في كل أرجاء الغرفة وعلى شكل دائري حين تنظر إليها وأنت واقف بعضها مفتوح والأخرى موضوع عليها إشارات تصفح .... ولكن أين أجد غايتي ليطمئن قلبي وسط هذه المجموعة الكبيرة من (الفايلات) ... رسالة ماجستير وأخرى دكتوراه في فن التشكيل ،هذا اسم رئيس جامعتنا ... هذا اسم شخص اعرفه وهو أشبه بفرعون عصره في العلم والثقافة هذه كلها أسماء أعلام إذن أنا لست الوحيدة التي استعين به وعليّ إن أجد رسالتي في الدكتوراه جاءني صوته :

- أرجوك لا تحركي أي شيء في الغرفة .

- لكن ما هذه القناني الكثيرة التي توازي مكتبتك المتناثرة .

- لا عليك اتركي أي شيء ودعيني أوصلك إلى أخر الشارع ليعرفك أصدقائي بأنك من أقربائي.

- قلت للأستاذ محمد الفخري بأنك من أقربائي .

- أتركي هذا في الوقت الحاضر ودعيني أوصلك.

وحين هم بالوقوف كانت عيني لا تفارق مجموعة (الفايلات) وحاولت إن اخذ بعضها بطريقة السرقة البريئة ولكن خفت على نفسي من المستقبل .... آه إنه لا يقوى على القيام من فراشه البائس الذي كان عبارة عن بساط خفيف ووسادة رثة ورائحة تختلط بين رائحة الدخان وقناني الشرب ... وفعلا أخذت مجموعة من (الفايلات)عسى إن أجد رسالتي بينهن .... جاءتني الشجاعة في توديعه دون أن يوصلني ، وأترجل كأي رجل ورجعت من فوري إلى الكلية والساعة تقارب الواحدة ظهرا إذن قضيت مشواري بثلاث ساعات وبدأت أتصفح (الفايلات) .. يا الهي هذه رسائل الماجستير لا أشخاص اعرفهم وأساتذتي في الكلية وأخيرا هذه رسالة الماجستير التي تخصني ولكن أين رسالة الدكتوراه ... صدمة وقعت بها ... وحيرة كونية بين إن أكون أو لا أكون فضيحة عالقة بيني وبينه بعد أن عرفت الكثير من أسرار الكذابين من أساتذة الرسائل المكتوبة بالنيابة مقابل اجر زهيد لهذا العملاق الكبير والمفكر المندثر بين أكوام الكتب والقناني . هؤلاء يعرفون قيمته العلمية ولا أجد من يذكره حتى ولو في كلام طيب وتذكرت مرة جاء اسمه فقال احدهم : هذا شاعر سكير ومتصعلك والغريب إن المتصعلك السكير قد منحه شهادتي الماجستير والدكتوراه ويذكره بمنطق متعالٍ .

عليّ ان أزوره قبل أن يفارق الحياة وان أكون بقربه كل يوم انه إنسان مثالي ونادر ولكنه فقير جدا ... وهذه (الفايلات) يجب إعادتها إليه وليكن هدفي رسالتي فقط في الدكتوراه .

خرجت في صباح تموزي جميل وأنا اعلم أين ذاهبة ومعي كل ما يحتاجه من طعام وأدوية وبعض الخضروات والفاكهة وصلت إليه دون الاستعانة بأحد وكالعادة البابان مفتوحتان دخلت عليه وجدته في حالة يرثى لها ومصيره قائم للموت وعليّ إحياؤه مهما كلفني الأمر ... أمسكت رأسه .

- أيها العالم والصديق المبدع :أنا زينب عاتي سأكون في خدمتك ...

نهض بتمهل ورفع رأسه وقال:

- أهلا زينب شعرت بك قريبة مني بعد زيارتك الأولى بل مغامرتك الفريدة من نوعها لإنسانة تحب الحياة مثلك.

- هذا علاج وبعض ما تحب .

- شكرا أيتها الرائعة .

- هل ارتب أشياءك، غرفتك بائسة جدا؟

- اتركيها فانا اعلم بأشيائي تعلمت على هذه الفوضى منذ أكثر من عشرين سنة ، أعيش وحدي واكل وحدي واقرأ واكتب وحدي وقد تحولت الأشياء هنا إلى مضامين مابين السياسة والفكر والأدب والفن والكل يبحث عن مضمونه كما أنت غامرتِ من اجل مضمونك وهذا من حقك .

- وضح لي أستاذ راشد أنا لا افهم ما تقول .

نهض بتمهل وهو يرسم على شفتيه ابتسامة غريبة وحدق بنظرة فاحصة باتجاه (الفايلات) عرفت من فوري انه علم بما عرفت وأخذت فأرجعتها جميعها إلا رسالة الماجستير التي تخصني ولم يعقب على ذلك واستمر الحال حتى أعاد جزءا من صحته وأصبحنا نلتقي كل يوم ونذهب إلى الصحف لجلب مكافآته ويعرفني بأصدقائه ويطلق علي لقب الدكتورة زينب ولكن أين جهدي لم اترك ركنا من أركان غرفته إلا وبحثت به حتى فاجأني بقوله .

- زينب أنت تعرفتِ على أسرار احتفظت بها لسنين وأنا أيامي تعد بالتنازل بسبب المرض الملم بي وقد جعلت منك أستاذة حقيقية وأنت تبحثين بين أوراقي وها أنت بدأت تعتمدين على نفسك ... سأذهب بعد أيام إلى محافظتي واترك لك مكتبتي فقط وهذا (الفايل) الذي يحوي بقايا رسالة الدكتوراه التي تبحثين عنها حاولي جهد إمكانك أن تحبي البحث والقراءة واعتمدي على نفسك وكوني (زينب عاتي) لا راشد اللطيف.

لم أتمالك نفسي وأخذت ابكي بصمت وأنا مبهورة به على سعة صدره وقوة تحمله ولكنني لم اتركه أبدا فاليوم الذي لا يأتي به اذهب إليه في غرفته،، والمفاجأة بعد شهور من رعايتي له واقتراب مناقشة رسالة الدكتوراه كان حذرا وشديدا معي حتى علمني ... صنعني بصناعته وامتثلت أمام لجنة مناقشة رسالتي والغريب اغلب اللجنة قرأت أسماءهم في غرفة الراشد وأرغمني على إخفائها وهم يمنحونني شهادة الدكتوراه

عيونٌ اصطناعية

مخلوقة تسر الناظرين ،يهيم بها القلب شغفا يبتسم لها الثغر إعجابا بجمالها الإلهي الناطق بمحياها من أول وهلة لنزولها للحياة وهي تصرخ صرخة تعلن بها وجودها ،وتدغدغ بذلك الصوت شغف الأب الذي طال انتظاره وكثر دعاؤه حتى استجاب له الخالق بهذا الرزق الذي أثار تعجب القائمين على حضورها للحياة ... عجبا للطفلة بهذه المواصفات الإلهية، الكونية ،النور يشع منها كأنه بياض بدر في سمائه وهو يرسل محبته بخيوط بيض على من تقع عليه ناظراه... عيون كأنهما كوكبان كبيران يعكسان بجمالهما صورة كالمرأة واضحة الانعكاس ،عميقة الغور ...عيون ناطقة بالحياة والجمال والفتنة تغزوان ذلك الوجه البدري المستدير المضيء وتعلو بتقاسيمه تلك الوجنتين التفاحتين والأنف المصقول يظلل فمها الوردي المكتنز ... يصدح ويهلهل بالصلوات كل باصر لها ،وينطق بعفوية : إنها ملاك مصغر على الأرض أو شيء من البراهين والمعجزات انتظروا ستتكلم .

هكذا كان المحيطون بها ينتظرون صوتها ... بكت إلام بصوت عال ونطقت بكلمات تريد أن تدفع الحسد عن طفلتها ... الأب استلم النداء وهيمن على طفلته التي طال انتظارها فأصبح ظلها أينما تتنقل ، لا يتركها حتى وهي تأخذ جرعتها من صدر أمها ،يقف كمظلة واقية عن عيون المتواجدين بل أحيانا يحتضن الأم وابنتها وعيناه شاخصتان للسماء ... وبالغ الأب في حبه وحرم ملاكه من أن يراه احد كما حرمها من الظهور تحت سماء ودفء أشعة شمسها وإنارة قمرها ... حتى اسمها لا يذكره في مجالس الأحبة والأصدقاء ويستعيذ بالله بوجه كل من يلفظ اسم ملاكه المقدس... أصبحت الطفلة إلهة الجمال والسعادة يعبدها الأبوان... واحتوت معجزاتها الجمالية كل الصفات المؤثرة والملفت للنظر وهي تنمي السرور والخوف فيهم وهم يحيطونها برعاية قل نظيرها وهي تكبر يوما بعد يوم ليصبح عمرها سنة كاملة لم ترها غير عيون عابديها وجدران البيت حتى حين تمرض علاجها موقعي لا خروج ولا معاينة وزادت أعراض مرضها وذبلت الطفلة بين يدي والديها وأوشكت على الموت بل الموت كان مرابطا لها مما اضطر الأب أن يختار طبيبا خاصا للكشف عنها وما أن فحصها الطبيب وعمل كل الأمور الطبية أعلن بان علتها متفاقمة وهي في أيامها الأخيرة في توديع الحياة ... جن جنون الأب وهو ينظر الى طفلته ذات العيون الكروية البارقة واللامعة وذات الوجه الملائكي ويمسح على جبينها بألم وهو يحملها عائدا الى بيته ولأول مرة يخرج بها من عيادة الطبيب كاشفا وجهها ليشاهدها الناس وليلقوا عليها النظرة الأخيرة وهم يهمسون بجمالها والأب يبكي بصوت أجش لا ينظر الى احد حتى دخل داره ورماها على فراشها بقوة وهو يقول

: هذه هي عطيتك يا رب ... ما أن سقطت الطفلة حتى تدحرجت عيونها على الأرض وتحت أقدام والدها فقفز مرعوبا وهو ينظر للعيون تتدحرج ككرات على الأرض وانطفأ وجه الطفلة وهي مبتسمة غير باكية وأصبح وجهها عبارة عن نقرتين عميقتين فارغتين ... والأب أصبح كالخشبة يابسا اختفى أنينه وبكاؤه وصراخه وهو يشاهد أمرا لم يتوقع حدوثه حتى ولو في الأحلام ..أمرٌ مرعبٌ شل تصرفه وأمات سواكنه حتى جاءت زوجته لتتمرغل على جسد طفلتها معتقدة وفاتها لكن الطفلة لم تمت وهي تناغي أمها.. حملتها الأم وخرجت بها الى المستشفى ولحقها الأب بعيون ابنته ووضعهما في (صحن الطعام)... أثار الموقف تعجبا أكثر بين الأطباء ،والمختصون ادخلوا الطفلة الى غرفة العمليات لساعات طوال وبانت النتيجة إن لا عودة للعيون الكبيرة ... ستبقى الطفلة هكذا مدى الحياة ... نظرت الأم الى زوجها وهي تستمع الى نتيجة الطبيب وترمقه بنظرة قاسية وهي تقول للطبيب:

_ هذه نتيجة طبيعية لغضب الرب على الأب الأناني الذي لا يحمد النعم.

سقط الأب على ركبتيه وهو يكرر استغفاره للجليل القوي ويتذكر حين رمى ابنته وهو جاحد لنعمة الله فقد السيطرة على نفسه واخذ يضرب رأسه بقسوة حتى أدماه ولم يتوقف عن ضرب نفسه ... حاول الكثير منعه ولكن لا محال حتى جاء صوت زوجته وهي تمسك برأس ابنتها العمياء.

- قم واذهب لبيتك وافعل ذلك بقوة عسى الله أن يغفر كفرك ويطيل عمر ابنتك فهي بحاجة الى رعاية بدلا من إخفائها عن أعين الناس .

فعلا نهض واستدار ومشى بخطى ثقيلة وهذه المرة الأولى منذ ولادة ملاكه يتركها لوحدها وبين أحضان أمها... سارت الأيام وكبر الملاك الأعمى، لتكون جميلة الجميلات بعيون اصطناعية.

صوت منامي

أعلم أن هذا الصوت قريب مني يناديني ،وان هناك حدثا رهيبا ينتظرني ،هل بوعيّ التام أم بقايا سهرتي تنوح برأسي الكبير وتثقله وتجعل مسامعي تسمع أصواتا غرائبية تتشابك وتتلاحم وتؤثر على منامي وتقلق راحتي ،يمكن أن تكون أضغاث أحلام أو هستيريا الصحوة وانفكاك رأسي من نديمه الذي يرافقه طوال الليل ويفقد حواسه حتى يهنأ بنوم عميق لا جدال فيه ولا هوس ولا أحلام ترعب منكبيه ولا استذكار لما يمر عليه من حالات المرض والموت والحروق الصعبة نتيجة الانفجارات الدامية التي ابتليت بها (بغدادي) الجميلة ... إذن أنا نصف صاحٍ وعليّ أن اكتشف ذلك الصوت الذي دمر منامي رغم ثقل رأسي وما يحمله من هموم وأوجاع ..نهضت من فراشي بصعوبة ابحث عن أي بصيص للضوء .. غرفتي أشبه بقبر كبير خفت لأول مرة كان حولي ملائكة أو شياطين تدفعني نحو باب متلامس الأشياء بأناملي وأخطو كالأطفال حديثي المشي والظلام يجعلني أعمى تماما ويعتم عليّ كل الأشياء إلا صريخ القادم من وسط الدار ... لم اعتد الصحو مثل هذا الوقت ولا اعرف هكذا ظلام وكأنني بحلم أو في عالم أخر تذكرت قداحتي التي تحوي على مصباح صغير فرجعت خطوات الى مكان منامي وتلمست جانب رأسي وعثرت على ذلك المصباح الذي أنار الغرفة وهدم الظلام القاتل وقع بصري على زوجتي الحبيبة وهي في سابع نومها فخرجت من الغرفة باتجاه الصوت وبهتت عيني لمنظر رهيب،، قطة تولد وحول عنقها الحبل السري يكاد يقتلها وصغارها بدون وعي هرعت الى ماكينة الحلاقة وانتزعت منها (الموس) شفرتها وحرقتها بالنار وأخذت اقطع الحبال السرية من جميع القطط الصغار وأنقذت الأم التي استسلمت لعمليتي الجراحية دون صوت او ضرب أو عض وكانت النتيجة موت نصف القطط خنقا وأخذت القطة الأم تنظف المكان وتنقل قططها الميتة الى خارج الدار وانتظرت عودتها عسى أن تنقل الباقيات من القطط الإحياء ولكن طال انتظاري وأنا أشاهد هذه القطط تتداخل مع بعضها لتصبح شبيهة بكرة ملونة وبكيت بشدة وبكائي ليس له سبب وبدأت اصرخ واصرخ حتى أحسست بأنني أقع من مكان مرتفع انظر تحتي أرى بيتي يعلو ويتهدم وأنفاس ناس حولي تحاول إنقاذي وصوت زوجتي يناديني بجميع الكنى ففتحت عيني وأنا مغرق بالدموع وجسدي الثقيل مرمي الى جانب السرير وقد أرعبت زوجتي من صياحي وتدخل الجيران وكأنني احتضر وبكى أطفالي عليّ بشدة وحين انكشف عني حدث النوم ابتسمت وتأسفت ،فربت على أطفالي واحتضنتهم بشدة وصورة القطة علقت بذهني ونهضت وعيني بعين زوجتي التي تعرف آثار هذا الوجع اليومي الذي أخافه وينتقل الي كأضغاث أحلام ولكن هذه الليلة كان اشد من سابقتها ...

صديق و(نص)

أنا مع نفسي اغرق دائما وأهيم كطائر لا محطة له ولا جدار يركن إليه ، يعلو ويهبط مع قوة الريح وقسوة البشر وعنف الطبيعة... أغرق في كل شيء وأحسب حساب كل شيء وانتهي دائما بلا أي شيء وابدأ من جديد... ليس غريب الأطوار ولا شكلي بعيدا عن أشكال البشر بل امتلك مسحة من الجمال وحلاوة في الكلام ومعرفة من الحياة، ولدي من الأصدقاء المهمين أعداد كبيرة واغلبهم يفوقون عمري ،ونجاحي متوازن في استمرارية حياتي ليس عاليا ولا فاشلا ... ولكن حظي بطيء جدا وأمشي ببطء ، ولكن لم يحدث أبدا أنني مشيت خطوة واحدة الى الخلف... مرشدي القاسي أبي الذي يوبخني دائما ويتهمني باستمرار إن لا صديق لي رغم أعدادهم الكبيرة... تصومعت لمدة طويلة وأنا أحصي أسماءهم وعناوينهم وألحق صورهم بين أوراق مذكراتي متحديا أبي الذي يخجلني بكلماته ، أجد نفسي منتصرا عليه وهو يؤكد ان لا صديق كامل الأوصاف وحقيقيا في زمن اختلت فيه مقاييس الإنسانية ... وسرحنا ذات مرة في علم البحث عن جمال مفردة الصديق فاصطدم فجأة بحالة لا تسر بالا حين اخذ يروي حالته أمام ميزان العدالة الذي حكم عليه بالموت شنقا حد الموت جزاء حقد دفين وتحدٍ مريض بين الأصدقاء وعلى غرار المحكمة دخل شخص يعلن معرفته بالحادث ويقسم يمين الله هو من جنى الفعلة لا من في القفص وأخر تردد قائلا:انا املك مالا لا يحصى افدي به صديقي وان كان جانيا.

ساد الصمت في رواق العدالة والأشخاص تتجه الى أبي المحكوم عليه بالشنق وهو يضحك بملء فمه ويصرخ بوجه صديقه الظالم: لا أصدقاء حقيقيين سوى (الصديق والنص). ثارت كلماته جدلا وأراد الحضور معرفة هذا السجع المعرفي المنكر للأصدقاء وهل هناك نصف صديق ... فجاءت كلمات أبي وهو يبرر حين قال: الأول فداني بكل ما يملك لقناعته ببراءتي والثاني فداني بماله شكاً ببراءتي فالأول صديق والثاني نصف صديق .. هكذا وجدت نفسي تتأرجح في همها الصدائقي فتوصلت بعد تجربة مصغرة من تجارب الحياة القاسية إن نصف الأصدقاء هم أعداء.

سيطرة

لم أتوقع أن يعلن تمرد داخل سيارة تحتوي على أكثر من عشرين راكبا بذلك الصباح التموزي الذي توقفت السماء عن الحراك نهائيا ولا ذكر لنسمة هواء،، الكل ينزٌ عرقا وكأنهم في حمام لتخفيف الوزن(ساونا) ... الانتظار قاتل والسيطرة تتحكم بمرور السيارات بعنق زجاجة، ولا مجال لمرور سيارتين فتشكل السيارات علامة عشوائية باتجاه السيطرة... تتسابق كالسلحفاة من اجل المرور ... تذمرت تلك السيدة بتمرد أثار انتباه الجميع وهي تفتح باب السيارة وتنظر إلى الأمام والى الخلف وجدت طابورا من السيارات لا يعد ولا يحصى قال لها احدهم وهو رجل مسن نظيف الملبس: أين تذهبين ونحن على جسر سريع .أجابته بسرعة والعصبية واضحة على محياها التي تتجاوز العقد الخمسين بوضوح .

- أين هو السريع لقد تحول الى سيطرة عسكرية لا تحل ولا تربط كل هدفها تأخير الموظفين وأصحاب الرزق اليومي عن وظائفهم وأعمالهم في هذا الصباح الجامد في كل شيء .

سادت لحظة صمت والسيدة تقف على حافة الباب تراقب السير حتى قال لها شاب في ربيع عمره .

- سيدتي تحملي قليلا ،اليوم غريب من أوله،السيطرات في كل مكان أكيد تبحث عن مجرمين وإرهابيين لقد سمعت أن قتلة مأجورين قتلوا ضابطا مهما على هذا الجسر قبل هذا اليوم .

ارتبكت السيدة من قول هذا الشاب وصعدت فاغرة فاها وهي تنظر اليه بتعجب وأثار هذا الحديث راكبين يجلسان معا ودار حديث القتل والانتقام وكأنهما برلمانيان أو يعملان في دوائر حساسة فكان حديثهما نقطة تحول الركاب إليهم ،حين قال احدهم :

- نحن نعيش أزمة كبيرة وهو التخلف في كل مقاييسه ،وأصحاب السيطرة جهلاء لا يفقهون من العمل الأمني شيئا أنهم أرقام فقط في سجلات أسيادهم فالسيطرة تختلف مناطقيا حسب توجه تلك المنطقة وانتماءاتها الحزبية والكتلية وغيرها من التجمعات والتيارات التي تتنافس على قيادة البلاد فكلام هذا الشاب صحيح الاغتيالات بكاتم الصوت مشاعة الآن في كل مكان تستهدف الشرفاء الذين يخدمون البلاد بدون مقايضات مادية أو طمع في شهرة أو سلطة.

أجابه صاحبه:

- إذن نحن في خطر محتم مثلا هذه السيطرة التي تخنق مئات السيارات من المحتمل أن يخرج الآن علينا الإرهابي أو المأجور ويحدث ما يحدث .

السيدة بصوت مرتفع:

- يا ستار، يا ستار استر ؟!

أكمل ذلك الشخص حديثه :

- سيدتي الأقدار بيد من وجدها ولا حيلة لتغيير القدر إذا تحتم وقوعه .

جاء صوت من مؤخرة السيارة ليقول:

- نحن شعب غريب الأطوار ليس له هدف محدد يقبل بكل الأوضاع التي ترسم له .

وقال آخر:

- صحيح كلامك والدليل أكلنا أنواع الحنطة الفاسدة والسمراء وطحنت تلك الحكومة مختلف الحبوب واكلها الشعب وصبر وتحمل وجرع المر .

جاء صوت آخر يضحك باستهزاء:

- في ذلك النظام الفاشي كانت تعمل السيطرات لقتل علمائنا وشيوخنا وينسبونها الى قوى عظمى وألان هدفها عرقلة حركة السير وتأخير الكسبة من اجل التمايز الطبقي الجديد ... عجيب بائع لبن عضو برلمان كنت يوميا اشرب منه كأسا من اللبن انتعش به من حرارة الصيف واليوم يشرب شعبٌ كؤوسا من الصبر وقوة التحمل.

تعالت أصوات الجالسين وهم يضحكون مما كسر جو التوتر في السيارة . وأردفت السيدة قائلة :

- لماذا لا نتعلم الشجاعة ،شعبنا يتظاهر أسبوعيا والحكومة صامتة لا تحرك ساكنا .. شعبنا يقتل دائما باسم شخص إرهابي مجهول ... شعبنا يقاسي الحرمان وحكومته تتنعم بثراء فاحش.. كل القادمين ينهشون بلحمه ...هذه سيطرة بسيطة ألا كان من الأجدر بنا أن ننزل ونهتف بوجوههم ونشجع باقي السيارات لتحرك ساكنا باسم الشعب ونطالب الحكومة أن تقوي جهازها الاستخباراتي وغيره لكشف القتلة دون سيطرات تقتل فينا العزم والإخلاص لخدمة بلدنا ... أنهم ينمون الإجرام في نفوس الضعفاء من الفقراء بهذه الأساليب غير المشروعة .

هنا تدخَّل سائق السيارة ليقول :

- كفى فلسفة ،نحن في قلب السيطرة... لا أريد مشاكل مع الحكومة .

المثير للجدل ان السيطرة عبارة عن صناديق وحجارة وإطارات سيارات وصفائح معدنية تعيق السير باتجاه فتحة صغيرة تشبه عنق الزجاجة يقف الى جانبها جندي يحمل موبايلا يتكلم به رافعا يده يلوح بسير السيارة التي تعجبه ويحاسب السيارة التي تبدي انزعاجها يرسلها الى جندي في جانب الطريق للتفتيش ... وعندما شاهد السائق يرفع صوته حتى لوَّح له على طريق التفتيش فقال الجندي وهو ينظر من النافذة الى داخل السيارة :

- من منكم يحمل السلاح ؟

جاء صوت موحد فيه الخوف والتردد واضح ... من الجندي الذي صمم تأخيرهم ...

- لا احد يحمل سلاحا.

نظر الى السيدة وهي ترمي ثقل رأسها الى الأمام كي لا تقع عيناها بعينيه فقال:

- سيدتي هل تحملين معك زجاجة عطر.

أجابت مسرعة بكلمة نعم خائفة وهي تخرج زجاجة العطر من حقيبتها وتمد يدها المرتعشة اليه ... ابتسم الجندي اليها بكل أدب وقال للسائق :

- انطلق

نظر الركاب احدهم الى الآخر وهم يوجهون إيماءاتهم باتجاه السيدة الخائفة ... فضحك السائق بصوت منخفض مليء بالخبث... لتتعالى أصوات الركاب بالضحك ضاربين الكف بالكف ....

سلطة الوهم

كل شيء في حياته من صنع الخيال ،دائم الحلم ويعطي لنفسه ألقابا ومسميات، ويتحدث على لسان القادة والمسؤولين وكأنهم أصدقاؤه المعتمدون عليه في صنع القرارات .. كل صعاليك المنطقة تعرفه جيدا لأنه يفرغ همومه وجيوبه يوميا على طاولات الشوارع والأرصفة.. تعرفه المكتبات لأنه الوحيد الذي يقتني الكتب والصحف كل يوم ليتحدث عن الملوك والفترة التي حكم فيها الهاشميون يرددها لكل من يرغب في الحديث عن العولمة وعلم اللاهوت ... النهر يجري بتيارات متذبذبة نحو الأمام ليصب في محيطات كبيرة ويمر بأطوار عديدة فمسيرته بناء وزراعة.. وهو يسير عكس التيار بلا فواصل منفعية أو قيمة مستقبلية، أيامه متشابهات منذ طلاقه وتركه لولدٍ وبنتٍ في حجر من نفرته من كثرة الخيال المصطنع للفوقيات والسلطة الوهمية، وسارت الحياة معه دون أن تعطيه غير منطقة واحدة ومحيط بكون واحد يحلق بهما كيفما يشاء ويدور بكل الأزقة ،تعرفه الأبواب والمحلات والفنادق وحتى الرصيف ينطق باسمه حين يثمل .. ففي كل ضغطة قدم يطلق صوتا من الأرض يعلن اسمه (ماجد ... ماجد ... ماجد .....) وهو يصدق الأصوات ويتحدث معها ويشرح آلامه لها حتى يصل غرفته وهي قصره القديم وعبارة عن متحف لكل شيء أكل الدهر عليه وشرب ... جلس في دائرته يصارع الماضي بالحاضر متذكرا ما قدمه لهذه الأرض من كلام صادق لإنسان واهم بالوطنية .حين كان يمثل بلده مقاتلا على جبهات القتال لمنع الإسرائيليين من احتلال لبنان وسوريا ...وكان فتى صغيرا بين مقاومين أشداء .. بقيت هذه الذاكرة الوحيدة وسام شرف يحمله أينما يذهب...وهو في خياله المعمق سمع صوت إحدى قريباته من أمه تسأل عنه ... تعجبت دائرته لهذا الحدث المهم ..أول مرة منذ عشرين سنة مضت يسأل عن ماجد بهذه اللهفة والود والمعروف عنه انه يتعاطى كل المحرمات من اجل لحظة نسيان ... همَّ واقفا واخذ يتفرس الموقف فتذكرها واخذ يعانقها بحرارة ويسأل عن أمه وأخوته.

فهذه الفتاة كانت الوحيدة كحلقة وصل بينه وبين عائلته وهي من أجمل ما أنجبته أخته الكبيرة .. نظرت اليه بعطف وحنان وأغرقت عيونها بالدموع وكادت تصرخ بأعلى صوتها .. وهي تعلن حزنها بابتسامة رقيقة مع احمرار واصفرار وجهها الشبيه بوردة عباد الشمس وهي تعانق الشمس وجها لوجه .. خاف كثيرا وبدا يقرأ عيونها وهو يقول أمي رحلت:

-لا ..من قال ذلك.. العمر الطويل لجدتي

- إذن ماذا بك ؟

-عندي هدية لك قاتلت حتى تراك وهي معي الآن

- لا تمازحي معي انا تركت الزواج والى الأبد واكره جميع النساء ولولا معزتك لكنت تصرفت معك غير هذا التصرف ... خذيها وارحلي يكفيني أمري لوحدي مع وحدتي القاتلة وانا سعيد بها طالما انا بعيد عنكم .

هنا تقدمت فتاة صغيرة بعمر الزهور ترتدي أجمل الثياب ومعطرة بعطر يحبه شخصيا شم العطر وكاد يبكي وهو يقول لبنت أخته اخرجوا رجاءً ... جاءه الصوت الملائكي بثقله وهمه وآلامه وهي تقول له .

-هل عرفتني كي تطردني .

وقف كالتمثال الرخامي الذي تركه نحاته زمنا ولكنه حافظ على نقاوة جماله ودقة فنه ... تفحصها وسيل من الدموع تهطل على وجنتيه واخذ يشهق بالبكاء .. تجمهرت الموظفات حولهما وهن يبتسمن لحاله وينظرن اليها كعشيقة أرسلتها السماء لهذا المنفلت في كل شيء في حياته .. ازداد ألمه الداخلي وانفجر حاضنا الفتاة وهو يصيح :رسل ابنتي حبيبتي كم كبرت .. هي صورتك في قلبي لم تبارحيه أبدا وسقط على الأرض مغشيا عليه بعد أن أبكى الجميع وفاق من النوم في حالة يرثى لها من الذعر يلتفت حول نفسه عسى ان يشاهد رسلا الى جانبه .

خط أحمر

تولد في المكان سر عجيب يثير التفكر ويأخذ بالقلوب والعقول ،ويدس اللحظات الحاضرة في عالم آخر وزمان آخر يكون فيه الإنسان مختلفا ومميزا يجعلك تكتشف تنافر واقعك، وإشارة إلى ارتباك كبير من الارتياب... ولا أدهش، ولا أعجب من ذلك الموقف الرهيب الذي هيج الصراع الداخلي الذي هيمن على الروح والنفس، والفاصل بينهما هو هذا الانعطاف الأخلاقي عن الرذائل والقبائح التي لم نعد نرى أناسا تتصدى لهذه الظواهر الاجتماعية من رياء ونفاق وانعدام ذمة، ونلاحظ بنفس الوقت أبطالا يصارعون أنفسهم ويحاولون استرجاع الماضي ويكشفون عن الخطايا التي ارتكبوها خوفا من القصاص ...

لا أرى القضية كما يراها بسطاء العقول من حولي وهم يهللون بسلامة الإنسان وفناء كل شيء ... قد يكون الإفصاح والإظهار لأمر ما ضرورة فان الكتمان والإسرار لأمر آخر ضرورة أيضا ... لذا أصبح المكان مقدسا بل مزارا فهو محمي بأسماء جليلة وأهله رموز بشرية تجوب في فنائه كملائكة ناطقة، تنفذ أوامر السماء بطاعتها العمياء... بقي السر معي لم أحدث أحدا به لسنوات وانا جليس الغرفة التي عشت بها آخرتي المحتومة وظهرت من جديد للحياة بشكل آخر وشخصية مغايرة تماما، وهذا الحدث أجج في حنايا روحي حبا كنت اجهله ودأبت روحي تبحث عن عشقها في بطون الكتب، واسطر الدعوات، وشفاه المرتجلين بالكلام فكان بكائي ممزوجا بالدم، وأنا أتفاعل وجدانيا مع الحدث الشبيه بالمعجزة الإلهية وظل ينمو ويترعرع في ظلال الأحزان الإنسانية النبيلة والمشاعر الوجدانية الصافية ليلهب نفسي وقلبي وعقلي فيتحولا الى ثورة من الوعي ضد كل انحراف عشته ... وأي انحراف بل انحرافات لم أعِ فعلها المضاد بل كنت مستهترا بكل القيم حين كنت ابحث عن أي طريق لجني الأموال بعد أن مارست السرقة في الدور والطرقات لم يسلم مني أحد، جيراني و أصدقائي ومعارفي ،كان أبي السيف الجارح لي دائما فلم استقم وكنت لا ابقي عليه مالا ، إما أن اسرقه أو يدفعه لمن اعتدي عليهم.. كنت أتربص الفرص للسرقة ... ولا أنسى تلك الظهيرة الساكنة في بيتنا الكل نيام على هواء تلك المروحة التي تخفف من حرارة الجو ... أصدقائي ينتظرونني خارجا وأنا أتنقل من غرفة الى أخرى بحثا عن أي مبلغ من المال حتى التحق بهم، فلم أجد غايتي ،فوقعت عيني على صندوق صغير ودون تفكير فككته وأخذت ما فيه من مال فرحا وخرجت مع زمرتي منتصرا ليومي ،وذهبنا نحتسي حتى فقدنا عقولنا ورجعت دون أن أمارس طقسا آخر من الرذائل اليومية ... دون وعي قادتني قدماي الى تلك الغرفة ونمت بهدوء لا اكترث لشيء أبدا ،وفتحت عيني وأنا وسط

ضوضاء كبيرة وتكبيرات وكل شيء حولي اسود ودخان كثيف ذو رائحة تخنق متنفسها وقعت عيني على ذلك الصندوق المهشم وقرأت بخط واضح وباللون الأبيض الناصع (صندوق الحسين) ونظرت الى جسدي المحمول من الناس لم يصبه أيضا أذى رغم أن الحريق أكل كل شيء إلا الصندوق وأنا فبدأ بيني وبينه خط مشترك في قضية روحية عقائدية وبرهان على إعطائي فرصة للتفكر والرجوع عن الرذيلة وبداية للحزن وتأنيب الضمير،والخوف من الله لمنحي فرصة الحياة ،وهي الحالة النفسية التي تعتري مثلي من البشر والتي قوامها الشعور بالحسرة والضيق ولا تكون إلا لما حدث فعلا سواء انقطع هذا الحدث وبات من ذكريات الماضي أم استمر في الحاضر من الزمن ... ولا ادري كيف يحزن شخص مثلي يمتلك من القسوة ما تكفي أن يموت كافرا وهو بعيد كل البعد عن معرفة الجنة والنار وفي ساحة الدار أناس في وجوههم اكتئاب وفي عيونهم دموع وأنا يخيم عليّ الخوف والحزن ، ولكن الحقيقة إن الحزن الذي ينتابني وقتها متولد عن حتمية قضية خاصة وشحت حياتي بوشاح الحزن وحكمت عليها من رحم واقعية الحادثة التي عشتها... وهي حقيقة تهم الجميع وتمس الكثير أن (الحسين) إمام وأن مظلوميته قضية تلوح بظلالها في كل مكان وتخضع دائما الى محكمة العدل الإلهي التي لا تخطئ ،والتي رسمت على ملامحي صور الحيرة والذهول نتيجة تعدي الخط الأحمر على أملاك (الإمام) وكأن أمواله نقطة التحول التي منعت النار من أن تمس جسدي فكنت ممن وضع في امتحان بلا فشل أو فشل بدون امتحان .....

خدعة صديق

الحلم ليس كافيا كي تحقق ذاتا تمشي على الأرض، وليس الواقع كافيا إن لم يسبقه حلم،والاثنان ليسا بكافيين ما لم تخطط لطموح وترسم أساسا لمستقبل مجهول، فما أجمل البطولة في الخيال وأنت تحلم في فك لغز أعدائك والسيطرة عليهم بقوة، وتتمرد على الطغاة وتحاسب المجرمين وتساعد المساكين وتعيش الرفاهية في الجاه والمال والسطوة، لتمتلك قوة خرافية في السباحة ضد تيار الظلم وأنت تستخدم صلاحياتك في كل مكان وزمان لتقتص من مرتدّي الحياة الذين دأبهم فرض عقوبات وهمية، تساعدهم مواقعهم على ابتزاز الفقراء والمساكين والخجولين، أو أن تكون طبيبا ناجحا تنقذ البشرية من أمراضها المزمنة والمستعصية والكل يشير اليك بالبنان وتعرفك كل الجهات وتقربك الحكومة إليها وتعتمد عليك في شفاء رؤسائها المهمين... في بلدي هناك العديد من المسؤولين وحفنة من الرؤساء وجمهرة من القادة وجميعهم مستهدفون من قِبل الإرهاب، وتحلم أن تكون قائدا عقائديا تحبك الأمة وتموت من أجلك وأنت تحميهم بفتاوى الإرشاد والإصلاح وحب الله والوطن والأرض والناس والجيران العالمي والداخلي او تكون محاميا صلدا توقف كل مجرم عند حده حتى لو كان (....) ومهما كان. فالعدالة رمز التساوي بين الأفراد ليس فيها غني ولا فقير الكل يحاسب حسب جرمه وجريرته، لا مجال أن تستفيق فعليك مسؤوليات كبيرة يراد حسم لها... ولائي اليوم في خطر ويحتاج الى شجاعة مطلقة لنسف الرؤوس العفنة التي وجب قطفها، عليك أن تؤسس مؤسسات من جديد لان السابقة امتلأت بالإفساد والمفسدين وعلى عينك يا تاجر، الجيش والشرطة يستغيثون من الفشل ويطلقون شعار قوة بلا قوة ورحمة الله على الفقير الذي يقع تحت حوافرهما فلا رحمة تشمله ولا قانون إنسانيا يخفف عليه سياط الحاكم المجرم ، فيما الآخر المتعالي في الفساد يشيخ ويشمخ ويستفحل ويكبر ويحكم عليك بالإعدام متى شاء...

حليب مريم

الحياة حين تضع ممتلكاتها تحت هيمنة القضاء والقدر، ما هي إلا امتحان رباني يوجع القلوب الفقيرة، في كل الظروف وفي نفس الوقت هناك سبب أو مسبب للأحداث المؤلمة تجعل من قدرات الإنسان في أوج عظمتها وأحيانا تجعله هائما وسط قسوة الزمن الذي يعيشه... وضعه البائس وهو جالس على حافة نهر دجلة يفكر بحبيبته التي قاتل على أن يتزوجها لتكون أم أولاده وروحه الثانية... امتثل وتشبث بالقيم الإيمانية ودعوات وزيارة الأئمة وروحانيين ممن يقرؤون الطالع ويعملون الحجاب للشفاء والحسد والرزق وإنجاب الأولاد ،فلم يحصل على مراده ،وغايته الكبرى شفاء زوجته ... لماذا الفقير يطول امتحانه الرباني وسط هذه الزحمة من الطرق الشائكة التي يصنعها القدر على بلاد منذ ولادته لم يشعر بها بأمان أو تغير أو تطور... بلاد غارقة ببحور من الدم بصناعات خفية وعلنية للموت المجاني بلا مسببات أو مسببات واضحة هي القوة الإيمانية للفرد الغارق في الأمل،أمل الانتظار أن يظهر الحق ليزهق الباطل: يقولون أنت وسط هذا الماء الجاري تعيش بذراته أو لك منزل بين السماء وسط المياه لا يراه إلا الراسخون في العلم ومن يقل ذلك فليس من أتباعك أو مؤيديك، حتى الراسخون في علوم اللاهوت والبحث عنك جارٍ من شخصي الفقير الى اعلم علماء هذا العصر المتلون والمتغير بدون ثوابت فيه القاتل معروف والمقتول قاتله مجهول الهوية وشلة من المتلونين والخونة يحكمون بدستور إراداتهم وعبثيتهم بالمواطن والمواطنة ... إذا لا قيمة لحياتي بعد زوجتي وهي تحتضر ولا قدرة لي على توديعها ،عندي أمل ان تظهر القدرة الإلهية أن تنجيها مما تعاني من أزمات كالأمل لهذا الشعوب بانتظار مخلصها من الم الخوف من القادم من الأيام لهذه البلاد المقدسة.

وهو يصل الى قرار حتمي مع نفسه ،جلس الى جانبه شخص كبير بالسن وأشيب ذو رائحة طيبة سَحَرَهُ بمجرد الجلوس وإلقاء التحية وسأله ما قيمة الدموع المؤلمة التي تنساب على وجنتيك ؟ليس هناك من شيء في الكون إلا له سبب يولدُ الحلَّ .

_ كيف أجد الحل وسط هذه الجراثيم النتنة التي تحاول قتلي وقتل زوجتي المريضة التي لم أجد لها علاجا عند كبار الأطباء فلم يبق لي غير ربي وأوصيائه الأطهار.

_ إذن الحل موجود ،أذهب الى أي كنيسة واطلب منهم حليب مريم العذراء ففيه شفاء لزوجتك.

دون تفكير أو نظر الى الرجل الأشيب ترك المكان واخذ دلوا وذهب الى اقرب كنيسة وقف ببابها كالصنم، وهو يردد مع نفسه وأخر الأطباء القديسة مريم العذراء

ومن ثم دخل بخطوات ثقيلة تملؤها الرهبة من المكان. جاءه صوت نسائي كأنه موسيقى حديثة على طبلة إذنيه لتقول له: أهلا بالأخ هل من خدمة..

رفع في وجهها الجميل الذي ينصع بياضا بملابسها الرهبانية ، الدلو _ محتاج حليب مريم لزوجتي المريضة، ولن يشفيها إلا حليب مريم العذراء.

تبسمت الراهبة ونظرت اليه بود وقالت تفضل سأعطيك حليب مريم ولكن لن تحتاج أبدا لهذا الدلو....

خجل من عفويته وسذاجته وهو يسير خلفها حتى وصلا قبو الكنيسة وأعطته ترابا بكيس صغير جدا قائلة : الشفاء لزوجتك يكون بنفس المكان الذي كنت جالسا به تذهب اليه زوجتك وتضع التراب على قطعة سمك وتبدأ بأكلها وإلقاء فضلاتها في الشط ومن ثم تعود ستشفى بإذن الله ... وما ان طبقت زوجته تعاليم القدرة الإلهية ، لتعود الى صحتها الاولى ، ليعلن من ذاته أن الله وأولياءه يحيطون بنا دون ان نشعر بهم ويسببون الاسباب في الشفاء والرزق ...

الهروب الى القتل

لم أتوقع أن استيقظ صباحا على صوت هذا البائع وهو يروج لبضاعته، وأنا في صباحي الأول في غرفتي، وحبيبتي التي تقنع الأطفال أن لا يتحدثوا بصوت عال كي لا استيقظ وتلك ابنتي الكبرى قادمة مع أطفالها قاطعة مسير ساعات لتراني بعد فراق طويل ...ما هذا الجمال العائلي الذي أنا فيه ،نهضت أتفحص أوراقي وكتبي القديمة وبعض هوامشي اليسارية ومعتقدي الذي حلمت أن أخوض تجارب الإبداع من خلاله وأنا أناضل ذات اليمين وذات اليسار خوفا على يساريتي أن تسقط أمامي واذبح بقطنة الندم ... اسمع زوجتي تنادي ابنتي الكبرى أن تنتظر صحوتي معتقدة إنني لم انم هذه السنين التي ابتعدت فيها عن بيتي ... يأتي الى مسمعي صوت البائع من جديد كأنه يدعونني أن اشتري منه رغما عني، يذكرني إن هؤلاء الأطفال سيسألونني عن هدايا وحلويات... قدحت فكرة أن ابعث الفرح والسرور في قلوبهم إذا ما اشتريت هذا النوع الخاص من الفواكه التي كانت تتحسر عليه العوائل الفقيرة التي تكتفي بالنظر اليه وتحفظ شكله واسمه وتتمنى أن تمسكه باليد .. لعنة على ذلك النظام الفاشي الذي أرعب الفقراء وحرمهم من كل شيء، لتكن هديتي هذه الفاكهة الجميلة... خرجت من غرفتي على عجل باتجاه الباب، ولكن صغاري صرخوا بأعالي أصواتهم: استيقظ البطل الغائب... أدمعت عيناي وارتعش جسدي وكبر شجني وأنا اسمع ترددهم لكلمات البطولة التي لا يفقهون عنها شيئا... أصبحت خارج الدار وأنا في حالة من إحساس كنت احلم به طالما كنت غريبا خارج بلدي... اقتربت من بائع الفواكه لأشتري صندوقا من الموز الصومالي ... تجمدت عيني عليه وهو يجادل البائع عن السعر وبهت فور أن شاهدني وتراجع عن عروض السعر وكاد أن يهرب من أمامي فبادرته مسرعا:

- كيف وضعك يا صديق صادق؟

أجابني بتمتمة وخوف استغرب لها البائع ولكنني قررت أن أخلصه من نزاع الأسعار ودفعت له شراء صندوق من الموز ورفعته ووضعته على كتفه الأيمن وقلت انطلق فرح أطفالك يا صادق.

لكن صادقا انزل الصندوق على الأرض واخذ يبكي بشدة ويعتذر ويطلب السماح مني... المشكلة إنني نسيت الأمر تماما ولكنه ذكرني بأنه ليس له علاقة وقت أمرت الأمن وأجهزة الحزب مراقبتي على مدار أربع وعشرين ساعة ليكتب عني التقارير كل لحظة بل كل خروج ودخول الى بيتي وحينما ارجع حاملا كتبا يدخلون على بيتي ليلا إما للتفتيش وتركي أو اعتقالي وضربي وكان آخر تقرير كتبه صادق

وكان له دور المخبر السري العلني وقتها حين أراد شباب من اليساريين أن يحتفلوا بسنوية تهمهم وتحدوا الوضع بوطنية عالية واجتمعنا حينها واشترينا (نفخات) بالونات جميعها حمراء ومن مختلف الأحجام ،وكتبنا عليها شعارات معتقداتنا اليسارية وارتفعت الى أعالي السماء ترفرف بالأعلام اليسارية مغطية الجو تماما مما أثار غضب الحقبة الحاكمة واعتقل الأمن جميع أصدقائي ولكنني وقتها قررت ان لا اعتقل مهما كانت الأسباب ولا أعطي فرصة لجارنا صادق أن يكون بطلا لمحلتنا وقويا على عوائلنا فغادرت مغتربا عن وطني ...وهاهو نديمي وغريمي بمنطقتي أمامي يسرد علي أمور حياتي التي اعرفها والتي لا اعرفها وحتى التي أغفلت عنها انه دقيق مع من استخدموه ...أجبته:

- اسمع يا صادق نحن الآن نعيش حياة جديدة وأنت صديقي وابن منطقتي ،الذي يصيبك يصيبني وبيتي مفتوح لك أخا وصديقا وأنسَ الماضي وعش ديمقراطية الأيام القادمة بحب واقتنع بأننا كنا وطنيين وعلى حق في طلب الحرية لشعبنا الحر كي يعيش حياة سعيدة .

سقط صادق باكيا نادما على ما فعله معي وقت التسلط والقوة والتصفية للشخصيات التي تعارض حكم الجهلاء من المتسلطين والجهلة وعابدي المال والسطوة على حساب الفقراء.تغيرت الحياة نحو صعوبات اكبر واحتلال مميت وثقافات عقيمة ووجوه ألعن من وجه صادق كاتب التقارير بل الجميع أصبحوا صادقين ويكذبون على شعبهم وعوائلهم وجميعهم بريئون ويقتلون بظل مظلات ومسميات ما انزل الخالق بها من سلطان ... بكى الشعب من الوجع اليومي في القتل المجاني ،وبكيت لكوني من الشعب لان صادقا من خجله مني ترك بيته مهاجرا أو هاربا إلى منطقة بعيدة وسمعنا نبأ موته مقتولا تاركا ماضيا مبهما ممتلئا بالخيانة والدم ... وبقيت أنا أسبح في بحر مفردتي ورغم جسدي الضخم الذي أخاف الفاشستي امتلك قلبا حنونا يسع الكون وما فيه.

الضلع الثالث

الى صديقي الراحل الشاعر محمد درويش علي

طيلة حياتي ابحث عن الشهرة والعلو واصنع في رأسي الصغير أوهام المجد بتخيلات العظمة والقوة والسلطة والإنسانية والتمرد على الشر وقوانين الغابة السائدة في الشارع، الكل له سلطان وحكم بافتراءات وغيرها، حتى منظف الشارع يحكم ويسجن بسلطة المكنسة التي تزيح كل من لا يعجبه وأصبحت بلادي يحكمها الكثير بتنوع السلطة والقدرة على السجن أو القتل من اجل غاية الإزاحة والتفرد أو إطفاء جذوة الغيرة والعقدة المستديمة بالتفرد بالسلطة والقرار... فأجد نفسي هائما في بحور الوهم واتلون كالحرباء في خيالي، تارة محاميا وأخرى رجل دولة مهما، ومرة ذا نفوذ وسلطان ووو.... وما أكثر الواوات في راسي وأجملها حين اصطنع الحب والرومانسية بوعي الداخلي ليتسلط قلبي على سائر جسدي فاغرق في نوم عميق بعيدا عن الوهم وقريبا من ذاتي المتطفلة في كل شيء والحالمة بكل الأشياء، قد يعود ذلك لطفولتي ونحس ولادتي وتنقلي من مكان إلى آخر ومن يد لأخرى وتأخر شمولي بدخول التعليم... أتذكر كان عمري قد تجاوز الثماني سنوات حين سجلني صانع أبي بالمدرسة لشغفي بالتعلم وإصراري على التواصل مع ذلك (الملة) القاسي وهو يضرب طلبته بقسوة من اجل سورة (الحمدُ) وقراءتها دون أخطاء لفظية وكان ينالني كل يوم من الملة ضربة لا لكوني لم أحفظ سور القرآن بل لعدم تمكني من شراء قلم وكراس للكتابة، وحين شاهد أبي قسوة الملة أعطاني دفتر حسابات محله وقلم رصاص غير مبرور ورغم ذلك ضربني الملة لأن القلم ليس فيه نبلة للكتابة وأنا مصر للتواصل حتى طفح كيل أبي وأرسلني بيد صانعه للتسجيل في مدرسة نظامية كان اسمها (العدنانية) الابتدائية وبدأ مشواري كبيرا مع العلم والتعلم حتى ساعة تأملي هذه لم يكن لي صديق من عمري، كل أصدقائي أضعاف عمري ونخب في مجال عملهم... حتى صديقي الذي اقتديت أثره يحمل نفس اسمي البيتي(عباس)... عشت مع مفرداته زمنا ورسمت الخطط للتعارف عليه وفعلا، كان لقائي الأول معه غريبا جدا كأننا نعرف بعضنا منذ دهر لا لساعات بسيطة، او زمن جلوسي الى جانبه ونحن عائدون من ضيم الوظيفة، حيث جلسنا جنب السائق وتحاورنا ببعض كلمات التعارف البسيطة،لفسح فسحة من الحديث كزملاء نعمل في دائرة واحدة وبنفس الوقت حجة كي يتأخر قليلا عن دفع أجرة السيارة بادرت سريعا وتحملت الأجرة.. فوجدته انتعش وسألني:

- أين أنت ذاهب والوقت مبكر ؟

- لديّ مكتب أمارس فيه أعمالا تجارية بعد الدوام أو عند التهرب منه أحيانا مثل هذه اللحظة التي جمعتنا.

- جيد... قد احتاج مكتبك في بعض الأحيان ...

لم أجب عليه ولم افهم بادئ الأمر احتياجه للمكتب اهو للتجارة أم لقضايا أخرى، ولكنني قبلت على مضض هذا الطرح السريع له.. بسبب اختياري له كصديق مثقف يمتلك الإمكانات العالية في الأمور الكتابية خاصة المسرحية منها وهو اسم يوضع على الكثير من صالات العرض المسرحي فهو يجيد كتابة النص المسرحي بطلاقة ودراية معمقة وبعلمية واقعية تنعكس تأثيراتها على الواقع الاجتماعي ، النفسي والاقتصادي ... وصلت السيارة في مسار خطها اليومي وقبل أن نفترق قال:

- هل تحب إن ترافقني إلى صديق جميل يعمل مسؤولا للإعلام الرياضي بوزارة الشباب والرياضة وهو يعشق المسرح . قلت :

- بكل سرور.

وقد انتابني الفرح وأنا أعمق صلتي به ... والتقينا الصديق الإعلامي وتعرفت عليه ليكون اسما جديدا في مفكرتي التي تحمل ذكرياتي اليومية ومن ذلك اللقاء تعشقت صداقتنا وأصبح يومنا واحدا، في الصباح نلتقي في الدائرة وفي المساء يضمنا المسرح أو مكان للسمر أو التقاء بشخص جديد، وهكذا زاد هذا الصديق من سعة تخيلي وجعلني احلم بأوهام اكبر من أوهامي السابقة فانا قريب من المجد والشهرة طالما إنا إلى جانب هذا المخلوق الذي اخترته بإرادتي بعد إن قرأت له قصة ومقالا ورواية وتابعت أخباره فوجدته يميل إلى النساء الناضجات ويستميلهن بطرق شتى ويقتنصهن كاقتناصه للكتاب من رف المكتبة .. عرفته عن كثب ودرسته عن بعد كنت أحيانا أضع له رسالة باسم فتاة باستعلامات الدائرة أو عن طريق البريد وأتابع تحركاته واهتماماته وشكه في كل فتاة تنظر إليه معتقدا انها هي التي تراسله وتعرف أسراره وأين يذهب وبمن التقى ومع من تشابك بمعركة أدبية أثناء محاضرة او جلسة لتعقيب مسرحية... كنت أتلذذ بهذه المشاكسة وانا احفز فيه روح البحث عن فتاة تراه ولا يراها... ومرة انتظرته بمحطة الباص وكان الازدحام في ذلك الصباح مثيرا للغاية بسبب حملة اتخذتها الحكومة لنقل الجماهير عنوة إلى ساحة كبرى لتمجيد رئيسها والاحتفال بذكرى عيد ميلاده... كنت قد تسابقت مع الآخرين وحجزت مقعدين ونظرت إليه من نافذة الباص وقلت له صائحا:

- أستاذ قد حجزت لك مقعدا فهم بالصعود قبل انطلاق الباص.

وفعلا صعد الأستاذ وكنت في غاية السعادة وهو يقول لي:

- شكرا قد كلفتك كثيرا..

- بالعكس أستاذ ،أنت شخص يستحق إن يحجز لك مكان في القلب لا في الباص.

ابتسم ورمقني بنظرة تفحص واستذكار فلم يصل إلى نتيجة فقال:

- حضرتك تعرفني

- نعم أعرفك أنت مؤلف مسرحي وصديقي يعمل بنفس موقع عملك.

- من هو

- الذي أجرى معك لقاءً صحفيا

- البغدادي

- نعم هو بعينه

- ولكن هذا صحفي من الدرجة الخامسة ولم يكن موفقا معي بالحديث فهو لا يفقه من حديث المسرح شيئا.. المسرح عالم خاص وله مختصون ذوو قيمة علمية عالية

- انه يجيد قراءة المقام العراقي الأصيل

- من ؟البغدادي ... يجيد المقام العراقي!!، مع احترامي لك هذا افشل من الفشل نفسه الذي يتنوع في عطائه كأنه يمسك بيد واحده عددا من التفاحات وهذا مستحيل.. مع كل ذلك من يعرفه ؟.. هل هو صحفي .. صحفي فاشل.. هل هو شاعر ... شاعر فاشل.. هل هو ممثل ... ممثل فاشل .. يا أخي الفشل يحيط بهذا الكائن بكل جوانبه هو عالة على الجريدة التي يعمل فيها.

حين وجدته يتكلم عن البغدادي بعصبية ومزاج معكر بقيت استمع إليه حتى وصلت السيارة إلى محطة الدائرة فقال لي:

- شكرا على حجز المكان وأرجو إن يكون هذا الحديث بيننا لان البغدادي صديقي وزميلي في نفس الدائرة ولا أريد إن اخسره ولكن هذا رأيي مع السلامة...

لم انزل من السيارة إلا في المحطة التالية ورجعت إلى دائرتي متأخرا ورغم كل ذلك لم يتذكرني ولا يتذكر الأحداث واكتشفت انه يعاني الضعف البصري بعينيه وأجرى عدة عمليات جراحية على أثرها ... واحتفظت بهذه الأسرار في مفكرتي وأنا أعيد قراءتها بين فترة وأخرى.. رغم إن صداقتي به توسعت وأخذت مداها

وصداها ،وأغلبية الوسط الثقافي والفني ربطني به حتى جاء يوم اللقاء الغريب بذلك الشخص الذي حاول بشتى الطرق ان لا أتعرف عليه رغم انه يحدثني عنه في كل لقاء بيننا.. ففي ذلك الصباح السبتي الجميل قد التقينا قرب مكتبات لبيع أصناف الكتب فقال لي بعد تردد:

- اليوم هناك شخص لطيف وشفاف وصديق ومقرب إلي مثلك يريد أن يتكلف بجلسة اليوم في مكتبك

وبدون تردد قلت له:

- المكان مكانك والتصرف تصرفك.. فمن المؤكد صديق صديقي، صديقي وكما يقول أبو المثل (الطيور على أشكالها تقع)...

ضحك بارتياح عميق ولم يتكلم أي كلمة وهو يتلون بين الأبيض والأحمر وكأنه ندم على التعارف، وفعلا كان صديقنا موجودا داخل إحدى المكتبات التي نحوم حولها ونقرأ بشغف عناوينها اتجه نحونا بمجرد وقوع النظر وألقى التحية وأردف قائلا:

- تأخرتم كثيرا ألم يكن موعدنا قبل نصف ساعة من الآن!!؟.

تكلم معنا بلهجة الجمع وكأنه يعرفني ولا توجد أي دواعٍ للتعارف فبادر صديقي المسرحي وقدم احدنا للأخر وضحكنا وسرنا لنعقد تلكَ الجلسة الغرائبية التي حضرت فيها كل الأشياء المتاحة وتكررت الجلسات وأصبحت لصديقنا الثالث بشكل يومي حتى أعطيته مفتاح مكتبي ولكن لا تسير السفن دائما على هوى ربانها.. وخلق صديقي المسرحي مشكلة بيني بين صديقنا الثالث لاستغلاله للمكان دون الرجوع الينا فقررت طرده من المكتب وفعلا تم ذلك وافترقنا فترة طويلة والغريب تواصل مع كلينا دون ان يشاهد احدنا الاخر هو حلقة وصل ... وانا لا اعير أهمية لما يفكر فيه، اهتمامي مصبوب باتجاه هوسي بمعرفيته الموسوعية وسارت بنا مراكبنا من شاطئ الى آخر ومن مكان جميل الى أجمل مصحوبة بعلاقات لا حصر لها... ووقعت الواقعة وزلزلت الارض زلزالها وابتلعت قوى الظلم ابتلاعا ساحقا لا رجعة فيه واختفى كل من كان اسما لامعا مع هذه القوة التي طحنت الشعب اكثر من اربعين سنة بشتى الضغوطات فانتشرت الفاقة والعوز وامتلأت بسطوتها السجون ودخلت من بوابة بلدي المفتوحة على مصراعيها موجات متلاطمة من الدخلاء والمرتزقة ومن له ثار... فاشتعلت بلادي بظلم أقبح من ظالمها الأوحد وأصبح الموت على الهوية والمعتقد واللهجة بدلا من غياهب السجون الكل يبحث عن فريسته حتى تمكن فيروس الموت المجاني من إحكام سيطرته وبث سمومه العقائدية بآلات الدمار الجماعي للفتك المفاجئ اينما تذهب تسمع او تنجُ من انفجار اخذ الكثير

من ابناء بلدي بلا جريرة او ذنب وهكذا كان الانتقام من ارض بلادي وشعبها بل تخصص لأول مرة في التاريخ الموت على المهنة بحجة التحريم... فموجة اقتلعت الحلاقين وأخرى من يبيعون الطماطم مخلوطة بالخيار وتطور الاقتلاع ليشمل العلماء والأطباء والفنانين والمثقفين ومحبي بلادي وحتى بناة البلاد من الشباب لم يسلموا من هذا الفيروس القاتل الذي زرع على ارض بلادي للتهديم والتخريب مما جعل الأسماء اللامعة ان تختفي او ترحل باتجاه الغربة بانتظار مضاد يقتلع الفيروس ... كنت أفكر بصديقي المسرحي اين صفا به الوقت؟ وقمت ابحث عنه وحصلت على هاتفه وكلمته وخرجنا بعد الاحداث نتلفت حولنا استعدادا للدفاع عن النفس من اي مجهول فكان يوم الجمعة محطة لكبار الادباء والمفكرين والمثقفين في شارع المتنبي وكان هذا خروجنا الثاني للتحدي باستمرارية الحياة وقبل دخول الشارع اردف قائلا :

- صديقنا الثالث يود مصالحتك وأتمنى ان لا تقول له انني سبب المشكلة القديمة واجعلها سرا بيننا .

وفعلا كنت في شوق له وفرحتي كانت هي وجوده على قيد الحياة في شوارع الموت والدمار ووقعت عيني عليه وهو ينظر الي من حافة عينه اليسرى واليمنى تدعي قرأت عناوين الكتب فبادرته بالتحية واحتضنني متأسفا خسارته كصديق لي وبكينا بكاء الأصدقاء وصديقنا المسرحي يتوسط حزننا ويبكي لبكائنا وسرنا مرة أخرى ثلاثتنا نتفحص العناوين الجديدة للكتب وأخرى كانت محرمة قراءتها سابقا إبان التسلط على المعرفة والانفتاح على العالم بكل التقنيات والمستجدات المعرفية والعلمية ..الذي كان يحارب الكلمة خوفا منها وهو يحشو لكاتبها آلاف الرصاصات بنفس الوقت فكان مصير من يكتب توجها أو فكرا أو يدافع عن معتقد او ينتقد عملا حكوميا أن تزرع في جسده تسع وتسعون رصاصة يدفع ثمنها الأهل ويبقوا في دائرة المراقبة الحكومية فمصيرهم إما الفرار خارج البلاد او يسكنون الجدران والسراديب المظلمة المعدة لهم .... فكان حديثنا عن الكتب ممنوعة التداول سابقا ورواجها حاليا حتى انتهى يومنا الجميل والمثمر فكريا وثقافيا وتجددت لقاءاتنا وتعمقت صداقتنا ،ونحن ثلاثة أخوة مخلصين لبعضنا، أواصرنا واحدة من حيث الفرح والحزن حتى جاءت ساعة محزنة لا يمكن إيقافها ولا بأموال العالم ،إرادة ربانية اختارت صديقنا الثالث ليرحل الى الأبدية بصمت غريب ووداع غريب للغريب وسط أهله وأحبائه وأصدقائه لم تنهل عليه الدموع كما كان يطلقها بحرقة من عينيه حين يفقد محبا او صديقا ... ذهب الى الأبدية تارك اسما لشاعر تمكنت منه الإنسانية فجعلته يعطي فقط لكل من حوله ولا يفكر أن يأخذ من احد ... ونحن نلقي النظرة الأخيرة على نعشه وهو يعتلي سيارة المشيعين من مكان عشقه وزاده

ومعبده الروحي ...ختم صديقي المسرحي وهو يحمل بيديه نظارته لتجمع الدموع في حدقتي عينيه وهو يمسحها بألم ووجع بقوله : الان تهاوى نهائيا ضلع مثلثنا ولا بديل لهذا الضلع لما يمتلك من قيمة إنسانية لا توصف ... وتوارت عن الانظار السيارة ونعشها وساد الصمت بكبرياء الوجود... وهذه المرة ليس تخيلا او اصطناعا لحلم بل حقيقة جدلية في الحياة والموت وما الانسان مهما كان هو الوسيط الوحيد بينهما ان كبر او صغر كان ثريا او فقيرا مشهورا او مجهولا ....تأبطت صديقي المسرحي وسرنا باتجاه الحياة بلا توقف لنبقى قدر المستطاع الضلعين القائمين .....

صمام الأمان

مرة أخرى أقف أمام بابه الخشبي الطامس في الأرض لقدم البناء، هذا الباب وحده يحمل على كتفيه ثقل البيت، كنت مشتاقا جدا أن ادخل إلى باحته، واقف في رواقه المجسم والمقسم بفواصل خشبية على شكل شبابيك عمودية الوضع قد مضى عليها دهر من الزمن ... الباب لأول مرة مقفل والممر فارغ تماما من المارة والزائرين وحتى من سكنة المنطقة، أرعبني منظر الجمود والصمت ولكن اندفاعي وشوقي جعلت أقدامي تخترق هذا (المجاز) الصامت الذي تنحني على جانبيه الدور وكأنها عاشقة ترغب في الاعتناق، يمنعها بعض جذوع النخل والخشب السميك الدائري الشكل الذي يمسك بالبيت كأكف كي لا يلامس الأرض ولا يحاول السقوط وتشعر عند مرورك إن انهيار البيوت قائم في أي وقت أنت سائر فيه ولكن بقيت على حالها قرابة مائة عام أو أكثر ... طرقت الباب ورجعت خطوتين الى الوراء بلا شعور وضغطي بدأ بالتصاعد ونبضي يتسارع بجنون أحسست بدوار براسي .. لماذا أنا خائف ؟ فتح الباب وإذا بالخادم يومئ لي بالرجوع وغلق الباب بسرعة بوجهي... قدماي توقفتا عن الحركة أمام الباب لا قدرة عندي للرجوع وترك الأمر ولا أستطيع طرق الباب مرة أخرى .. سمعت همسا حنونا من وراء الباب يقول: لي اذهب،، الحالة صعبة جدا ونحن خائفون عليك، حاول أن تتمكن من الرجوع بالسلامة.

أدركت أن هناك أمرا غير طبيعي يحدث ،المكان موحش بالفراغ لا صوت ولا إنسان ولا تلك الزقزقة الصباحية للعصافير وهي تدور في الفضاء وتتمركز في الزوايا العالية للبيوت وأعشاشها واضحة وفراغها أحيانا تسقط على الأرض وتحاول الأم زقها والأب رفعها وتفشل المحاولة لارتفاع المكان فيكون الصغير إما ملكا لصبي المنطقة أو وجبة طعام سمينة لقطط البيوت وهي تتربص دائما هذه الوجبة الدسمة... خطوت خطواتي باتجاه الشارع دون أن التفت يمينا أو يسارا شاخصا بصري على كتلة الضوء التي كونتها أشعة الشمس على شكل خيوط ذهبية نهاية الممر،انظر إليها كسراب كلما اقتربت بعدت أكثر المسافة كانت أطول مما أتوقع وأنا أتعثر في الوصول لقلة السيطرة على قدمي... هل أنا في كابوس جثم على روحي أو أضغاث أحلام تدور في فلك مخيلتي... ثقلت خطواتي بعد أن سمعت صوت مفتاح يدور من إحدى الأبواب التي أمامي، واصلت المسير بتمهل وحذر وخوف بل رعب حقيقي حينما سحبت بقوة جنونية إلى داخل البيت الذي فتحت بابه فجأة ،وكأني سقطت كما تسقط صغار العصافير بعد أن عصب عيني وشد معصمي بحديد وضربت على راسي وتحت قدمي حتى أصبحت تماما على ارض ضيقة ترفس جسدي أرجل بوحشية وقسوة دون رحمة... كنت صامتا لا أتكلم واستسلمت

لواقع الضرب دون أن اعرف السبب فقط شعور بحدوث حدث لا يمكنني معرفته قد يخص المكان الذي أنا فيه... خفت الركلات قليلا وامتدت أيدٍ إلى جيوبي لتفريغها من محتوياتها... الصوت يقول... اكتب:

- مبلغ من المال ، قلم حبر شيفر، هوية الاحوال الشخصية، رسالة غرامية، صورة لفتاة مكتوب عليها لن أنساك حبيبتي، اسمها (أحلام عباس حمودي) ، شهادة وفاة باسم صبرية علوان، مسبحة حمراء حجر يماني هوية دائرة خاصة..

توقف الصوت عند الهوية الخاصة وساد الصمت وشعرت أن المكان قد فرغ تماما لا صوت ولا نفس ولا ضرب ..بقيت على هذه الحالة وقتا طويلا، ورغم شعوري بآلام الضرب غفت عيناي وهجرت روحي جسدي وذهبت إلى تلك الروح الجليلة التي لم تفارق خيالي منذ رؤيتها أول مرة حين ذهبت مع صديقي سعد كروان لزيارتها ومصالحتها والتحاسب الشرعي للأموال مضى عليها سنة كاملة ،كان حينها سعد كروان عليه أن يدفع مبلغا كبيرا من المال ولكن لا يملكه وقتها وكان خائفا أن يقع في إشكال شرعي مع مرجعه الشرعي وصاحب الأمر في العقيدة ... دون أن ينطق سعد مشكلته عفا عنه الدفع لهذه السنة وكلفه بتوزيعها على المحتاجين والفقراء أو جمع زوجين بالحلال عند الميسرة، وقتها عمت الفرحة قلوبنا ليس من اجل المال بل كيف عرف أمر عدم التمكن من الدفع وما هذا السر الرباني الذي بداخله ولماذا محبته تنساب إلى القلب بمجرد رؤيته وأنا في تلك الحالة تبسم لي وهمس في إذني صوت يقول لي قل لا اعرف... صحوت مع هذا الهمس من نومي وهم يرفعون عن عيني الغطاء ويفكون ذلك الحديد الذي طوق يدي وأجلسوني على كرسي من خشب رفعت راسي فرأيت شخصين طويلين ذوي شاربين سميكين وتقاسيم الغضب والقسوة واضحة على محياهما ،كان احدهما يقف أمامي والآخر وراء طاولة مكتب صغير...وقد اشتركا في طرح أول سؤال عليّ وبصوت واحد: ماذا تفعل هنا ؟

كان جوابي سريعا وغير متردد ومتمكن وليس خائفا وكان الجواب يأتي كهدير الماء بانسيابية وسلاسة دون شعور بشيء..تسري في داخلي قوة كامنة، وصورة مبتسمة في خيالي تستنطقني حسب رغبتها ويد كريمة تمس هامتي فيزول وجعي...إنها صورة ويد ذلك الطاهر الذي عبرت المسافات الطويلة لرؤيته وهو الآن يحميني بروحانيته ... إذن افرح أيها القلب والجسد المضروب إن سيدك راض عنك ويحميك فنطقت:

- سمعت أن رجلا مباركا يقطن هنا صيته في كل مكان رغبت في رؤيته وأظن اني أخطأت المكان من المحتمل في الفرع الآخر من هذا الشارع.

- ماذا تريد منه؟

- لاشيء مجرد حب إطلاع لا أكثر.

- من هي صاحبة الصورة ؟

- زوجتي ممكن التأكد منها من هوية الأحوال الشخصية.

هنا ضحك الاثنان على غبائهما وقال احدهما للأخر كذلك شهادة الوفاة تعود لوالدته.. علينا أن نكون دقيقين نحن أمام رجل إعلامي فطن... ولكنه وقع بيدنا لنكسر فطنته وغروره وسنرسله إلى بغداد ليأخذ حق فضوله الصحفي.

- نعم أنا صحفي وجئت لزيادة معلوماتي ولدينا موضوع خاص عن حوزة النجف فقلت طالما أنا هنا فلماذا لا أقوم بالاستطلاع ولم أكن اعرف أن هذا يخالف القانون في شيء.

- هل هذا الموضوع لدائرتك الخاصة؟

- نعم

- الم تسمع عن أحداث النجف مؤخرا؟

- لا يهمني أمر النجف... أنا هنا لغرض أربعينية والدتي وجئت لقراءة سورة الفاتحة عليها وتخلفت عن أهلي لمعرفة من يكون هذا الرجل الديني واسع المعرفة والانتشار.

- تأكدنا من ذلك تستطيع أن تذهب من هنا وعليك أن لا تعود إلا بصفة رسمية... ولولا هويتك الخاصة هذه لذهبت وراء هذا الباب إلى الجحيم وبئس المصير مع الكثير من الموالين لرجلك الديني واسع الانتشار بزهده وعلمه...ارجع حالا الى بغداد ولا تتصل بأي شخص في النجف ستكون مراقبا حتى خروجك هذه نصيحة لك لكونك صحفيا أولا، وثانيا كي لا نبرحك ضربا وتذهب تحت الأقدام.

دون أن انبس بأي كلمة لملمت أشيائي وخرجت متجها الى محطة الباص والشك يحوم حولي بأنني مطارد... وفي يومي الثاني ذهبت الى دائرتي مرعوبا أن تصل معلومات كذبتي حول موضوع الحوزة وسارت الأيام ولم يطرق احد بابي وعرفت فيما بعد أن اليوم الذي كنت فيه لزيارة بيت من أقلد من خلاله أمور ديني وعقيدتي، ذلك الرجل الروحاني الجليل ... كان منكوبا بفقدان احد علماء الحوزة وهو قريب له

نسبا وقد اغتيل أمام بيته من قبل رجال الدولة الكارهين لامتداد العلوم الإنسانية على يد علماء يملكون المعرفة والبصيرة لدينهم ودنياهم.

أزمة

الظهيرة حرارتها تثير اشمئزاز الكثير من أصحاب المركبات وركابهم وهم واقفون بالطابور الظهري اليومي الذي اعتادوا عليه يوميا لأسباب كثيرة ومتغيرات جعلت من الشارع أكثر تلوثا بكثرة هذه المركبات على اختلاف أنواعها في ذلك الشارع المهم الذي يمر به جميع المسؤولين صباحا ومساء وبكل الأوقات، لذلك لم يمر يوم لا يحدث فيه شيء مثير يربك البسطاء و(الكسبة) من الناس ... فالرصاص الذي يطلق من مرافقي سيارات المسؤولين أصبح بديلا عن منبه السيارة العادي ، ما أن تسمع صوت الرصاص عليك أن تتجنب القتل أو الإصابة ... وهذا الشارع المثير كان متخما بالسيارات المتراصة والمتشابكة لا حراك في السير ولا قدرة على الإزاحة ومنبهات سيارات المسؤول تصفر صفيرا غير اعتيادي والمرافقون اخذوا ينزلون مدججين بالسلاح راكضين باتجاه الأمام لحل أزمة هذا الاختناق خوفا على المسؤول من القتل وآخرون تجمعوا حول سيارته بشكل دائري وجوههم إلى الخارج وظهورهم باتجاه السيارة، وهم شاهرو السلاح استعدادا لإطلاق الرصاص على كل من يحاول الاقتراب...حاولت امرأة مسنة اجتياز السيارات لغرض العبور الى الجهة الثانية وهي تمشي مشية متعرجة لولبية بين السيارات فكان الطريق نوعا ما سالكا قرب سيارة المسؤول.. تراكضوا عليها وطرحوها أرضا ومن ثم اعتذروا ،وعبَّرها احدهم وهي تنظف ملابسها من أوساخ الشارع تراجع أغلبية المارة راكضين راجعين الى مواقعهم أو السير باتجاه بعيد عن موكب المسؤول ...رجعت كوكبة من المرافقين احدهم يعطي للأخر موقفا : الطريق مغلق تماما لسوء إدارة شرطي المرور ووجود عسكريين وشرطة محلية وبتدخلهم زادوا في شدة الازدحام... الآن الشارع عالق تماما.

تكاثروا حول سيارة المسؤول بشكل مثير للجدل وحرص شديد وخوف من شيء سيحصل .. جميع أفراد الحماية شاهرو أسلحتهم... وبقوة اخرجوا أصحاب السيارات القريبة من سيارة المسؤول... انتبه الناس وأصحاب المحال و(الجنابر) على جانبي الطريق ... ركض شخص بالصدفة محاولا الاجتياز سريعا رفعت عليه الرشاشات والمسدسات وأطلق احدهم طلقة في الهواء، وبدأ الهرج والمرج الناس تتراكض بعيدا عن سيارة المسؤول ،،أصحاب السيارات الأخرى نزلوا راكضين مبتعدين عن المكان،أصحاب المحال أغلقوا أبوابها وسقطت (الجنابر) في الشارع وتناثرت بضاعتها سقط طفل على الرصيف من الخوف انشق جبينه وخسرت سيده جميلة عباءتها بعد أن سحبتها موجة الراكضين .... مرافقو المسؤول تجمهروا جميعهم حول السيارة وتركوا سيارتهم الأخرى.. أصبح الشارع فارغا والسيارات

متشابكة والناس مبتعدين لمسافة بعيدة ينتظرون حدثا ما أو مجابهة... احدهم يقول للأخر:

- سيارة مفخخة، ألا ترى اعتقلوا السائق القريب من سيارة المسؤول.

- قد يكون شخصا مفخخا، أنا شاهدت امرأة تقترب منهم وتمكن منها مرافقو المسؤول.

وأصبح القال والقيل بين الناس وهم شاخصون بأبصارهم نحو سيارة المسؤول المنتشر حولها المرافقون جميعا...جزء من السير الأمامي قد تحرك بفضل تدخل رجال المرور وأخذت السيارات تدور بحذر شديد ولم يبق سوى السيارات القريبة من سيارة المسؤول ... تراكضوا راجعين الى سيارتهم وتحركت السيارات وانفتح اشتباك السيارات القاتل ولم يحدث أي عمل إرهابي أو تعرض لشخص المسؤول وحين انطلقت السيارات بعيدة عن المكان رجعت الحياة بسرعة البرق لطبيعتها ورجعت المحال ترفع أبوابها وشرعت (الجنابر) تلملم بضاعتها وعرضها وأصبح الناس يخترقون الشارع عابرين دون خوف وفجأة تجمهر الناس في نفس مكان سيارة المسؤول فوجدوا أثار غائط رائحته كأنها رائحة إنسان ميت ... فتبين أن المسؤول كان في أزمة إرهاب البطن والتواءاتها التي تزامنت مع ازدحام الشارع ولم يستطع السيطرة على نفسه فغلق المكان من اجل راحته الجسدية.

امرأة حديدية

شاع صيتها بين الطلبة بالتزامها الأخلاقي وتمردها على كل من يخالف قواعدها ومبادئها التي نمت وتربت عليها، وعقدت عليها المراهنات في انحرافها أخلاقيا أو صداقتها وذهبت جميعها ادراج الرياح لصلابتها وقوتها ورصانة خلقها وشخصيتها المتميزة بالطرافة والابتسامة التي لا تفارق شفتيها المصاغتين صياغة إلهية أطلقتهما على طبيعتهما ومن يراهما يجدهما محمرتين بحمرة السماء لا بحمرة الطبيعة وهما يتوسطان ذلك الوجه الملائكي المبيض الذي تشع منه الأنوار بهاء ونظارة وعيناها كوكبان كبيران اختزلا الكون وجماله.... وذات صباح ربيعي دخلت بوابة الجامعة بأناقتها المعهودة من خلال تلك الملابس التي تغطي جسمها القويم من رأسها حتى أخمص قدميها لا يظهر سوى ذلك الوجه بأوصافه الملائكية توجهت من فورها باتجاه مكتبة الجامعة لتغرق في القراءة والكتابة دون أن ترفع رأسها فقط تجيب على من يطلق عليها السلام فترده بأحسن القول صوتا.... أصبحت نوال الاسم الأول في الكلية من ناحية غريبة جدا على الحرم الجامعي وظاهرة لن تتكرر فهي الوحيدة المتميزة في الدراسة والأناقة (الحجابية) بلا صديق وصديقة أو معاشرة أو محاولة ،الكل يطلبها وهي لا تطلب من احد أي شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا وانقسم الطلبة والأساتذة قسمين' قسم بارك التزامها الروحي وآخر يخطط ويبرمج لكشف أسرارها ومعرفة ابنة من ومن أية عائلة تلك التي تنجب فتاة بهذه الرصانة وقوة الشخصية والإيثار المؤثر بكل من حولها ...ونشطت المخططات وأرسل جماعة من الشباب إحدى صديقاتهم لخوض تجربة الصداقة، واقتربت منها وقدمت نفسها:

ـ مرحبا: أنا وعود كاظم من قسم اللغات ممكن أن أتعرف عليك!

نظرت إليها نوال وبعد ابتسامة رائعة وترحيب دبلوماسي رقيق شخصت فيها نقاطا كثيرة لا تتلاءم وشخصيتها ومبادئها المعتادة عليهما وكي لا تجرح مشاعرها طلبت منها الجلوس لغرض التحدث إليها بشكل خاص لكونها الزميلة التي تحاول الاقتراب منها كصديقة .وتسارعت وعود في طلب خاص حيث قالت:

ـ ممكن أن أقدم لك قدحا من الشاي في (كافتيرا) الجامعة

ـ أسفة،تلك الأمكنة لا تتفق معي... هنا في المكتبة المكان الأكثر دفئا والأجمل ذوقا لما يمتلكه من قدسية معرفية.

شعرت وعود بالفشل وبالوقت نفسه بالخجل على تلك الأخلاق الرفيعة التي تملكها نوال فجلست دون أن تنطق بأي كلام فقط تنظر بوجهها مرتبكة وحائرة ولكنها

أعطت وعدا لزملائها بمراهنة منحهم جسدها إن لم تستطع ترويضها وتقريبها وإدخالها مجموعة الطلبة الرافعين شعار لا فتاة تملك العفة الكاملة وعليهم اكتشافها ووضعها في لوحة المنحرفات أو الشاذات. قالت لها نوال: أنا لا اتفق مع ميولك وتصرفاتك.

ـ يعني ترفضين أن أكون صديقتك!

ـ كلا أنت إنسانة طيبة وجيدة ومنفتحة وأتشرف بمعرفتك ولكن لا أستطيع أن أمنحك فرصة أن تكوني صديقتي ما لم تلبسي لبسي كي تكوني قريبة مني بالشكل والطباع.

ـ ماذا تريدين مني بالضبط؟

ـ تغيري نحو نفسك أولا ونحو السماء ثانيا اتركي ما تحرمه السماء وترفضه.. تزهدي من معاشرة أصدقاء السوء الذين تلتقين بهم فيكيدون لك المكائد ويشوهون سمعتك بحجج الانفتاح والديمقراطية والحرية وأنت فتاة أجدك جميلة وذات خلق وممكن أن تعيشي حياة أفضل وقد تمنحك السماء زوجا وبيتا وتعيشين حياتك بنعيم السمعة والشرف وعليك أن تفهمي معنى الانفتاح والديمقراطية والحرية.

ـ ما هو الانفتاح بنظريتك؟

ـ ليس نظريتي بل واقع عالمي بل ثقافة التفتح حول ثقافات العالم والتقارب والتلاقح المعرفي ، على من يمتلك كلمة منفتح، تعني بأنه جزء لا يتجزأ من هذه الثقافات ونحن نفهم الانفتاح خطأ أن نمارس كل الأشياء القبيحة بلا حياء ونقلد الجانب السيئ منها فهناك موجات من التخلف المعيشي مرت على بلادنا منها أنواع الملابس الشاذة وترتيب الشعر وقصه وارتياد أماكن غير لائقة، فالإنسان المتفتح يترفع على الأشياء المبتذلة والرخيصة وهي من مخالفات الشعوب المتخلفة.

ـ هذه جزء من حرية الفرد في التصرف إذا لم أتمتع في حياتي متى أتمتع!

ـ هل تعتقدين هذه حرية هي أن يرخص الإنسان نفسه ويمنح جسده وان يعطي اعز ما يملك من اجل متعة وهمية ليس مبنية على عقد شراكة اسري، هذا هو وهم الحرية المعلن أما الحرية الحقيقية أن نمنح أنفسنا ثقة بالنفس ونسير في هذه الحياة مرفوعي الرأس ونفهم ماذا نريد منها وأي شيء نمنحها .... ممكن أن تكوني معي صريحة جدا ونناقش أمرنا بحرية وديمقراطية كي تصل إليك الفكرة كاملة ... لماذا تم اختيارك لي صديقة ؟ هل لكوني ابتعد عن مغريات التصرف المباح في الحرم الجامعي ؟ أم لكونك فتاة ذات صيت سيئ في هذه الكلية وترغبين أن تعالجي عقدتك بالنقص باتجاه عقدة التزامي بأخلاقي وقيمي ، أرجوك كوني واضحة معي .

هنا أصبح وجه وعود أحمر مصفرا وارتبكت لهذه الصراحة المطلقة ولا جواب يخرج منها بهذه الصدمة الكبرى وهذا الكلام الكبير الذي لم يتجرأ احد أن يقول لها انك مومس ولكن بطريقة مهذبة يعرفك في هذه الكلية القاصي والداني ... ساد الصمت لحظات ونوال شاخصة ببصرها نحو وعود تنظر ردة فعلها، ولكن وعود وقعت على الأرض مغشيا عليها وتجمهر الطلبة حولها وسكبوا الماء على وجهها وفاقت من غيبوبة مؤقتة ولكنها مبتسمة فقالت:

ـ نوال كيف أكون إنسانة حقيقية مثلك واكسب ثقتك وصداقتك؟

ـ كوني قوية ومن هذه اللحظة سمي نفسك بالمرأة الحديدية وثقي بها وابتعدي عن كل هذه الأعمال التي تسيء لك

ـ كيف وأنا إنسانة فقيرة لا املك شيئا اعتاش عليه ؟

ـ هل أنت واثقة أن تكوني إنسانة حقيقية ؟

ـ نعم .

ـ من هذه اللحظة أنت صديقتي ... سأزورك في مسكنك.

لم تفاجأْ وعود حين أطرقت نوال بيتها عصر اليوم نفسه وهي تحمل معها نفس الملابس التي تلبسها وبعض الهدايا... وفي اليوم التالي دخلت وعود الى الجامعة ولم تتجه نحو أصدقائها القدامى ولكنها ذهبت مباشرة الى المكتبة وأحدثت صدمة لكل من يعرفها ويتفهم تصرفاتها وإباحيتها المعلنة وغير المعلنة وبدأت تتصرف بكياسة ودماثة وتجمهرت حولها بعض الصديقات وبدأ طرحها في الحديث مغايرا عما كان قبل يوم واستمرت الأيام وطوت وعود صفحتها القديمة لتكون اعز صديقة لنوال .... لكن أصدقاء السوء استمروا على مخططاتهم ووعودهم مع وعود وحاولوا مرارا الاقتصاص منها ولكن بمفهومها الجديد للحياة استطاعت أن تهزمهم بعيدا عنها حتى وقعت في يوم من الأيام بفخهم باستدراجها الى منطقتهم بعد أن أرسلوا لها رسالة تطلب فيها نوال مساعدتها في بيتها وتجمعوا على وعود ونهشوا عرضها وشرفها بجنون الانتقام وبنفس الوقت أرسلوا رسالة إلى نوال تطلب بها وعود مساعدة في ذات المكان ولكن نوال لم تذهب وحدها بل مع أخيها وبعض أصدقائه لتفهمها ما يدور في ذهنية هؤلاء المرضى،وتفاجأت بانهيار وعود ونقلوها الى المستشفى بعد أن ابرحها الفاسدون ضربا مبرحا ... أودعوهم السجن بتهمة الاغتصاب ولم تتحمل وعود الحالة فارقت الحياة في نفس الليلة التي نقلوها إلى المستشفى والنتيجة هي انتحارها بأدوية قوية المفعول ... حزنت كثيرا نوال لفراق

صديقتها وعود ولكن خلقت في الكلية مئات الوعود بذات الخلق والطباع وأصبحت نوال وصديقاتها نوعا واحدا وملبسا واحدا وكأن الكلية أصبحت للمحجبات من أصحاب نوال، جاءت الأمن لتعتقل نوال من محاضراتها بتهمة الترويج للدين ضد الدولة وشراء الحجاب لطالبات الجامعة بدلا من الزى الموحد ... وبقيت صورة نوال تتنقل كالفراشة بين صديقاتها فكلهن أصبحن نوالا.

وعود ما بعد المقصلة

الامتحان الرباني أصعب امتحانات الوجود الإنساني،وأنت تتفكر في مصير محتوم وحولك ثلة متلونة ممن ينتظرون الموت واحدا تلو الأخر فمن نفقده نقيم له العزاء علنا وسرا وقلوبنا وجلة يملؤها الرعب والخوف ... تتأثر بأي صوت أو حركة فالموت يفتح بابه متى شاء وصريخ شهقة الروح وهي تغادر الجسد تصم آذاننا وتوسع مدارك الخوف في قلوبنا ... نعم أغلبيتنا يجد في قتلنا شهادة حب للوطن ،وطريقا حرا لشعبنا ،وبصمة شرف لأبنائنا ونتحسس خالقنا ينظر إلينا بعين الصبر وقوة التحمل لمصير كائن وجلل ... نافذة الحياة ترسل إلينا أشعة الشمس الدافئة نستظل بظلها ونميز ليلنا من نهارنا ،والمفاجأة تتوارى علينا في كل لحظة ،والهمس بيننا أصبح دويا ونحن نتبادل الأفكار والمواعظ والحكم وأمور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،وما قدمناه كان لله والى الله،إذن لمن هذا الرعب من خطوات ثقيلة قادمة نتمنى أن لا تصل كي لا تأخذ عزيزا آخر ... ففي قدومها يعلن الصمت والهدوء رغم تشبع المكان بالأجساد، والعيون تتسع وتلف دورتها حول بعضها تودع بنظراتها المتغلغل فيها ندى الدمع، وليس هناك علو غير نبضات القلوب التي ترن وتتزايد ويكاد صوتها يعلن خوفها من الأمر القادم.

هكذا عشت الرعب والامتحان الرباني ولازلت أخوضه عشية وأبكارا وتطبعت على الانتظار لكثرة الراحلين من الأصدقاء فبدأت اردد بين نفسي وأحيانا بصوت عال (روزخوني) (ياقارئ كتابي ابك على شبابي .. بالأمس كنت حيا واليوم تحت التراب) كنت أنفرد في قراءتها بعد منتصف الليل وابكي وحدي بكاء الفاقدين والمحرومين الناذرين أنفسهم من اجل الدين والوطن ،وكم كنت أتمنى الموت وأنا في ساحات الوغى لا على حبل المشنقة كي أتخلص من رعب الانتظار ،وان تفتخر بي عائلتي لكوني شهيد الدين والوطن ... وأنا على هذه الحالة من التفكر سمعت أَذان الفجر دون أن أعي طوال الليل ورهبته هرعت وقوفا وسألت نفسي هل كنت نائما وأنا أهذي ما هذه الكواليس والكوابيس وما أبشعها تمنيت الموت في ساحات القتال على فقدان حريتي، فالإنسان حين يفقد حريته يصبح عبدا لسجان ولجدران المكان.. تجاوزت الأزمة وأصبحت عبدا لمن خلقني وما أعظمه من سجان رؤوف حميد .

مع كل هذا الشجن المصحوب بالآهات والحرمان لم يكن في خلدي أن أعيش تجربة الأمل بالحياة رغم هذا اليأس من كل شيء بكثرة الطوارق والمصائب المهيمنة على فكري وعقلي وقلبي جعلت العاطفة تنساب من صدري وتختفي نهائيا لسنين خلت من عمري المطوق بطوق انتظار الموت ،ولم تبق سوى عاطفة الحزن على فقدان

من يأكل معك في الليل ، ليصلب مخنوقا بحبل يقاس حسب وزنه ليكون لا رجعة للحياة بعد النزول بحفرة الأوغاد ..وذلك الهاتف بتقنياته كان الوسيلة الوحيدة بالاتصال بالعالم الخارجي وعالم السجون ومعرفة مصير الآلاف من أبناء شعبي وهم ينتظرون حتفهم بطرق مختلفة للإزاحة من الحياة ليبقى (الأرعن) يفسد بالأرض كيفما يشاء ... كان لرنينه صداقة من نوع خاص جدا وعلاقة التخفي بينه وبين المساجين متعة حين انتصر عليهم وهم يبحثون عنه في كل مكان ولا يجدونه ونتحمل من اجله أنواع العقوبات لكونه السلوى الوحيدة لمتابعة الحياة وبعض الأحيان أداة نافعة في الدفاع عن أنفسنا بتوصيل المعلومة الى جهات ترعى بعض الأحيان الإنسانية ...رن يوما فحولني من شيء الى شيء آخر بعد الاستماع إلى أول كلمة منه سرت في جسدي حياة جديدة وأنا القابع في مقبرة الأحياء حين نطقت :

- مرحبا احمد

تأخرت قليلا في الإجابة انه صوت نسائي جميل لم اسمع مثله من قبل قد تكون إحدى قريباتي أو ما شابه ذلك فأجبت بهدوء .

- لست احمد ... أنت من تكونين ؟

- لا تمزح معي يا أحمد .. أنا وعود أختك .

- آسف الرقم خطأ وأنا لست بأحمد دققي في رقم أخيك قد تكونين مخطئة برقم.

أغلقت الهاتف دون زيادة في الكلام ،لكن شعرت بشعور مختلف لم آلفه من قبل وأدخلت نفسي مع نفسي في جدلية المشرع والتشريع لنعومة الصوت ورقته الذي بقى يدغدغ خافقي منذ الوهلة الأولى لصوتها ،وتمنيت أن تعاود الاتصال برغبة ملحة من جنوح عواطفي واتساع مخيلتي ،لكن جدليتي الدينية أوعزت تحريم القيام بالاتصال لما في ذاتي وضميري من التزام أخلاقي وأنا في حالة الهيام والوجد .رن الهاتف حملته لأول مرة على عجل وكان نفس الرقم الذي انطبع في ذاكرتي مع همس صوتها...بلا تردد فتحت الخط بصمت ،ولكن لم استطع الصبر على السيطرة على نبضات قلبي المتزايدة وأنفاسي المتصاعدة فتخرج من فمي كأنها آهات عاشق ،فاجأني صوتها صاعقة قوية ضربت قلبي عبر أثيرها الخلوي وهي تقول بلا مقدمات:

- آسفة أنت على حق أرجو أن لا تغلق الهاتف حتى اعرف هذه (ألونه) الخافقة في صوتك .

- لماذا هذا الفضول ،وما الحق في قولي ؟

- أخطاء الهواتف تبنى على تقدم رقم او تأخير أخر فيبحر هاتفك حيث الصدفة ،إما أن تكون صالحة او نقمة على من ارتكب الخطأ ... وفضولي لكوني ادرس علم النفس في كليتي،وشعرت بإحساس بأنك بحاجة الى صديقة ... فغالبا العلاقات الحقيقية تبدأ بآهة فتتحول هذه الآهة الى صداقة حميمية فتولد حبا فطريا نادر الوجود ....

لم أتمالك نفسي وأنا أخوض مخاض الحياة والأمل رغم إنني على بعد خطوات من المقصلة التي تنتظر رقبتي في أي صباح ... فكانت إجابتي خافتة الصوت فاقدة الأمل من الحياة تماما:

-عزيزتي كلامك رائع وجميل ويمتلك حسا يدل على نمو وعيك ،الذي يتفهم وضعي القلق وحياتي الهائمة نحو مجهول مقدس حتمي المصير تفتقد فيه خواص الحياة والأمل ..فيه المفقود والصداقة والحب خط احمر ... فلتكن هذه المخابرة الأخيرة لك (والتمسك)الدعاء لغريب لم تشاهديه وهو يعاني سكرات الموت البطيء...وأغلقت الهاتف بكلمة مع السلامة...قلتها ببطء شديد لرغبتي في التواصل مع هذا الكائن الأنثوي الذي دخل قلبي بلا إذن سابق ....كان كلامي معها فيه بعض المراوغة لإثارتها حين قلت :لتكن مخابرتك الأخيرة ولم اقل لها بذات الرافض ... مؤكد انها ستفكر بعد أن نعتها بالذكية الواعية .

حذفت مخابرتها الأخيرة أجزاء كثيرة من تفاصيل لغة الإعدام والانتظار المميت ومواقف الرعب اليومي وبدأت لغة انتظار اتصالها والاستماع الى صوتها الملائكي الذي أطربت له كل جوارحي ،وشعرت بالندم لقسوتي عليها وتمنيت أن أكون شجاعا كما عرفت وأنا أقارع المحتل واطهر البلاد من الأنجاس والمنحرفين والخونة والباغين عن ديني ومعتقدي ... اعترف بضعفي أمام صوتها العذب الذي خلق في قلبي الإصرار لتجديد الأمل ...(يا إلهي وسيدي أشكو اليك ضعفي أمام امتحانك لي ... لماذا يا سيدي وأنا أدنو منك مخضبا بدم رأسي،وأنت تمن عليّ بملائكة الجمال تأخذ قلبي الذي لم يعرف غير طاعتك ورضاك) وأنا على هذه الحالة من بكاء القلب والروح ،رن نقالي وفتحته وبي غصة من الحزن فأجبت :

-ماذا تريدين مني يا ملكة الأرض ..؟ماذا تريدين من شخص مات مئات المرات وعاش وينتظر أبشع موت على الأرض ؟ أجابت بصوت رقيق هز كل كياني صوت دافئ حنون ..

- لماذا هذا الحزن العميق ،اجعلني طبيبتك الروحية واقترب من روحي ،صدقني صوتك انبت في قلبي (ونه) تكبر كل دقيقة وهو إحساس لم اشعر به من قبل

،وسألت من حولي عن ذلك فقالوا لي هذا الحب الحقيقي ،فبدأت أتخيلك بمخيلتي كيف تكون.

- كيف أكون يا ملكتي ،من الأفضل أن لا تعرفي شكلي أو تشاهدي صورتي ،أنا على يقين ستغيرين رأيك بي .

-اسمع يا ملكي والله لو كنت وكيفما تكون سأعرفك من نغم صوتك ولو كنت بين ملايين البشر.

-إذن أنت خاسرة..وأنا لا أحب خسارتك.. نحن نعشق بالزمن الخطأ أنتِ مع الحياة تسيرين وأنا،أودع الحياة بأنين وزاد أنيني بوجودك بطريقي.

-لماذا تئن وتبكي بقلبك وتذكر الموت كثيرا .هل أنت راقد في مستشفى تعاني مرضا خطيرا ؟. قل أين وستجدني أرعاك بكل كياني وأقدم روحي قربانا لحياتك.

هذه الكلمات جعلتني أقول بلا تردد وبصوت واضح ملاكي :أنا في غياهب السجن ومحكوم عليّ بالإعدام شنقا حتى الموت قد تسمعين صوتي اليوم وقد لا تسمعينه غدا والى الأبد .

انقطع تنفسها تماما والهاتف مازال مفتوحا ..حاولت إرجاعها الى يقظتها فلم استطع لان الهاتف انقطع إما بسبب الرصيد أو انتهاء الشحن ... شعرت بالذنب على مكاشفتي لها بالموت والشنق فهما مفردتان تخرجان من الفم بسهولة ولكنهما سقطتا عليها كالقنابل الصاعقة مزقت رهافة شعورها وحسها ورقتها بل جرحت ذلك القلب النابض بالحياة والحب والأمل ... اتصلت بها مرارا بلا جدوى وبدأت اشعر بالوحدة تقتلني فمنذ أكثر من ست سنوات وانا بين الحياة والموت لم اشعر بالوحدة كهذه الأيام التي انقطع عني صوت ملاكي بعد أن أسست معها خطوات الأمل ..وكم ندمت على جرحها وكم تحسرت لعدم معرفة اسمها وبقيت وحدي احرق سجائري بغضب وأنفث دخانها بألم ووجع وحسرة حتى غادرني النوم نهائيا كما غادرني الخوف من الشنق ... وشعرت بالحزن الحقيقي يمزقني ..كيف سأساق الى مقصلة الموت دون ان أسمع صوتها مرة أخرى ..ان اعرف اسمها كي يبقى معي كالحرز اردده كتعويذة للنجاة من الم الخنق بحبل الظلم والطغيان كي أكون سعيدا في قبري ،وقد حققت الشهادة في سبيل الله والوطن ،والحب الذي زرعه الله في قلبي بوقت حرج لا يفقهه إلا ضمير حي وسلطان ربي ...مرت أيام عليّ تقلبت على الجنبين وأنا اتأوه وأبكي واصرخ في غفوات منامي حتى اعتقد كل من حولي ان حتفي قرب ورحيلي قد أزف ورأسي سيغادر جسدي ...كنت دائما أتكهن من سيغادرنا من أصدقاء الزاد والنوم والحديث في أربعة جدران ... كنت أتفرس الوجوه التي يقترب

رحيلها ..حين أبلغت عقيل :استعد للرحيل فيومك غدا...عبارة قلتها مابين اليقين والمزاح .

نهض عقيل قبل صلاة الفجر لأنه لم ينم تلك الليلة مطلقا فقد قضاها قياما وسجودا للخالق الجبار ..ووزع قبلاته على كل من في الزنزانة مودعا ..قلت له :

-عقيل أخي لا تصدق ما قلت سيهبك الخالق حياة جديدة وسترجع الى اهلك وأولادك وأصدقائك .

-كلا يا رحيم إن تكهنك في رحيلي يقين وهذا اليوم يومي الأخير ... فعلا سأذهب الى أهلي وأولادي جثة مغطاة بعلم جدي رسول الله وكم كنت أتمنى أن أغطى بعلم بلادي التي خسرت شبابي فداءً لها .

وبكى وبكيت وتكاتفت أيدينا وتعاهدنا أن لا ننسى بعضنا أبدا ... وما بدأت حركة الأقدام في الممرات تتحرك ذهابا وإيابا ..بدأ عمل المقصلة ينفذ بالرجال وأرواحهم تشهق شهقتها الأخيرة لتصعد إلى باريها بصوت مرعب يرعب داخلنا خوفا من الموت . فتحت باب الزنزانة ودخل الرجال يتقدمهم سيدهم بيده مرسوم الموت ليقول : سيد عقيل مهدي .

وقفت القاعة على بكرة أبيها وهي تنتحب وتبكي ورجال الأمن يسحبون عقيلا وهو يبتسم ويودع وقبل خروجه من الباب الحديدي قال: رحيم شناوة لا تنسَ العهد بيننا .صرخت بأعلى صوتي وأنا أتذكر هذا الصديق وهو يساق إلى الشنق وعيوني أعمتها الدموع وأغمي عليّ وذهبت الى عالم الأرواح تقتلني تارة أشباح واقتل تارة أخرى أعداء وأتصارع مع الأوهام ،واهرب من الذي يريد قتلي ،وأتلو آيات مطولات من الذكر الحكيم ،وأقاوم الذي يسحبني ليضع الحبل حول عنقي ،اضربه أتشبث بأي شيء،قدماي لا تقويان على الهرب ،فأذعن للأمر الواقع وقبل شنقي استفيق على رنة الهاتف وأنا أتصبب عرقا والدموع تملأ مكاني ..ابتسمت لسلامتي وفرحت لعودة اتصالها ..ودون مقدمات:

- أين أنتِ لماذا هذا الانقطاع الذي ليس له مبرر؟

لم تجب أقلقتني كثيرا وانتظرت استمع الى أنفاسها وهي تعلو وتهبط استمتعت كثيرا وكانت روحي تتلقف هذه الأنفاس وتقوى بها نسيت كل شيء وأصغيت لهذه الأنفاس .لتفاجئني بصوت خافت متألم :

- ما اسمك ؟

- رحيم ... وأنت يا ملاكي ما اسمكِ .

- وعود طالبة في كلية الحقوق وتحبك حدَّ الموت ،وأينما كنت سآتي إليك وأضع يدي بيدك وأحاول بكل ما املك إنقاذك من الموت.

وأنا اسمع صوتها وهي تغازلني بطريقة الإنقاذ من الموت احترت ما بين ان اصرخ باكيا أو اصرخ ضاحكا على هذا الذي يلفني به القدر.

- وعود عزيزتي دعيني أوضح لك لماذا أنا في خانة الإعدام انتظر أوراقي ؟وأي قضية من اجلها نذرت نفسي .

-مهما تكن قضيتك ،فمثلك لا يخون ولا يتنكر للوعود ،فحبك سر الخلود،عمره من عمر الوجود..احبك ولو انهار الوجود.

- وعود إن أيامي لا تحسب أبدا وان حسبت فهي عدد،وان عددت فيجب أن تشرع ..أنا صاحب قضية دينية ومعتقد مذهبي واحمل رسالة في صدري وعليّ الالتزام بقانون الوجود ما دمت حيا .

-رحيم حبيبي ... لا أفهم ما تقصد وضح لي .

-الحب يا وعود مسؤولية وهذه المسؤولية تقع في خانة الحرام والحلال فلا ارتضي لنفسي الاستمرار معك بلغة الحب .إن لم تكن لي صفة شرعية تجيز أن أقول لك حبيبتي وأنت الأمل المضيء في روحي المنتظرة صعودها الى السماء بأي لحظة. أما أنت الآن ،صديقة وفية بعيدا عن منطق الحب والوجدان فلا تنطقي بعد الآن كلمة حبيبي .

- إذن ما الشرعية التي تبحث عنها غير الزواج وانا موافقة أن أتزوجك ...أرسل من يطلب يدي وسآتيك أينما كنت .

-لا أستطيع أن أظلمك وأنتِ في ريعان شبابك ،اجعلي الأمر سرا لنبقى أصدقاء بلا لقاء .

- ولكن لا أستطيع أن اصبر نفسي دون أن أقول لك ،حبيبي حياتي مالك روحي وجسدي وكياني ...

أحسست بها صادقة كصدقي لها ،وأنها تشفق عليّ بهذا الصدق الذي تحول الى حب ... حاولت أن أتجنب حبها مرارا ،اضغط على نفسي ...اجرحها في صميم قلبها ... تتمرد وتعود بحب اعنف من ذي قبل ... ومرات عديدة تقف قرب بناية السجن

وتتصل ،وتحاول الدخول ولصغر سنها كنت ارهبها من الدخول فترجع مذعورة خائفة ... وتكرر عودتها وأصرت أن نتواصل ... فعقدنا زواجا شفهيا بعقد شرعي شفاهي يجيزه المضطر إذا دعته غرائزه أن يتمتع بوهم الإجازة الدينية ... وأبحرت مع وعود في ليالي عديدة أهيم بها وتهيم بي كلاما معسولا لا يخلو من حسيات الجسد وحاجته الجائعة للجنس .. فلم تبق شاردة ولا واردة لم تعرفها عني أو اعرفها عنها ... ومارسنا جميع حقوقنا الشفاهية بالزواج الهاتفي واستحدثنا طرقا وتقنيات حديثة لاشباع الغريزة المحرومة من الحقيقة...ومع كل ذلك تفاجأتْ بنبأ عظيم،أن القدر بسلطة الرب قد منحني فسحة من الأمل ..فقد دخل كتاب جديد للسجن يوقف الإعدامات و(يفلش) القرارات .. والعودة الى التحقيق من المربع الأول ..فأصبحت وعود حبيبتي وعنوان وجودي في الحياة وقدري الإلهي في التواصل معها ... فبقيت حياتي معلقة مابين زنزانتي ووعود .

أسلاك شائكة

أعرف تماما أنني امرأة منحوسة لا يعرف الحظ طريقه اليّ ولم يُكتب لي أن أتنعم بالحياة وبالزواج مثل صديقاتي القديمات وبنات الجيران وسائر القريبات، لقد ذهب بهنّ قطار الزواج بعيدا وأصبحت كل واحدة تحت نجمة.

وبدأت في الأشهر الأخيرة أفكر بحياتي وبمصيري وأنا أكابد سوء الحظ والإحباط الذي يتراكم عليّ مع مجيء كل صباح، بعد أن أكدت لي هدى وهي اقرب الصديقات وأقربهن إلى نفسي بان لا وجود لشيء اسمه الحظ، بل هو نوع من الوهم يدمن عليه الفاشلون، وشماعة يعلقون عليها الأخطاء، وقالت لي وهي تتباهى بتخرجها من كلية الصيدلة، بينما أنا لم أكمل الإعدادية :

- يا صديقتي العزيزة نور بدل أن تتحدثي عن الحظ والقسمة والنصيب يجب أن تعرفي، إن هناك إرادة وتخطيطا وحسن اختيار ومبادرة.. هذه العوامل هي التي تصنع حياتنا بمباركة الرب العظيم... مزقي كل الأبراج واطردي كل العرافات، ودققي جيدا في ما حولك، ومع الزمن ستكتشفين الأسباب الخفية التي تقف في طريقك مثل الأسلاك الشائكة، وهذه الأسلاك قد تكون شخصا معينا.

والحقيقة إن كلمات هدى بقيت ترنّ في عقلي مثل أجراس كنيسة قديمة، وبدأت أحلل كل كلمة فيها... بعد أن أيقنت إن ما تقوله هو عين الصواب لاسيما وهي قد تفوقت في الدراسة والزواج والإنجاب، أما أنا فليس لدي سوى أمي التي تدور حول فراشي وهي تتمتم بكلمات سريعة لا افهمها، ثم تشعل حول سريري أعواد البخور، وأنواع الروائح، والتعاويذ التي غرقت بها منذ صباي.

ظلت كلمة (الأسلاك قد تكون شخصا معينا) تحاصرني وتسدّ عليّ أي تفكير...مَن هذا هو الشخص الذي تحوّل إلى أسلاك تعيق مسيري في هذه الحياة التي أكابدها ولم انجح في أي خطوة أتوجه إليها؟ فأصبحت أشبه بالمعاقة المحاصرة بين جدران البيت.. ومما زاد من أحزاني ووحدتي هو بقائي وحيدة، بعد أن تزوجت آمال أختي الصغيرة، وبالأمس كانت تعاني المخاض وأنجبت طفلة جميلة أصرّت على تسميتها باسمي، وانتابني هاجس متناقض من الفرح والحزن فرحت لأن الكائن الملائكي الجديد سيحمل اسمي، وحزنت خوفا من أن تلاحقها لعنتي وخيباتي المزمنة.

لم يبق في البيت سوى أمي وأبي وأنا، وليس لي من يفكر في أن يسبب لي كل هذا الإحباط ، لكن إحدى الجارات وهي تغرق في ثرثرتها اليومية التقطت إذني

كلمة أعادت اليّ ما أسرتني ونبهتني إليه هدى... فبعد أن قبلتني الجارة قالت لي بالحرف الواحد:

- إن والدتك تمتدحك دائما وتقول إن نور ترفض الزواج لكي لا تترك أمها وحيدة، فلقد زهدت بالدراسة والزواج من اجل أمها ..هذه بنتي الحقيقية.

وبدأت الأحداث تمر في ذاكرتي المتعبة مثل شريط سينمائي :كيف تجد أمي ألف سبب وسبب لكي تفشل الخطبة... أكثر من ست مرات يأتيني النصيب، لكنني أتذكر في كل مرة تتسلل ليلا إلى غرفتي، وتتحدث لي عن عيوب الخطيب، ومشاكل كل عائلة أو تبث شكوكها بأمور أخرى تجعلني انفر منه، ومن أسرته، وتنهي حديثها:

- هذا لا يستحقك، ولا يليق بك... مازلت صغيرة.

لقد شارف عمري على العقد الرابع، ومازلت أيتها الأم تتسللين ليلا إلى غرفتي وتقولين لي منذ عشرين عاما، بأنني مازلت صغيرة...هل توقفت حواسك أيتها الأم؟ أم انك لم تشعري، بان للزمن دبيبا سريا؟ وتجاعيد تغزو القسمات، وتشيع اليأس؟

أنا لا أشك بحبك وتعلقك بأهدابي! لكن ليس كل حب يمكن أن يسعدنا، فبعض التعلق هو نوع من المرض السري الذي يجب أن نشخصّه، ونستأصله بأية وسيلة ...لماذا لم أدرك منذ سنين طويلة بان أمي قد تحولت إلى أسلاك تحيطني من كل جانب؟.. .بعد أن طغى الحب، وفاض التعلق فلم تعد ترى سواي بقربها، ولم تفكر بهذا التعلق الذي كنت أنا الضحية الوحيدة له.

كل من يراني يقول بأنني أشبه أمي في عينيها، واستدارة وجهها، ولون شعرها، وحتى في طريقة مشيها ...قد يكون هذا التشابه هو سرّ تعلقها بي، والوقوف أمام أي شخص تشعر بأنه سيأخذني منها...لقد كبرت يا أمي ولم اعد طفلة تعقصين لها الضفائر، وتقصين عليها الحكايات القديمة لكي تنام على أصداء صوتك .

لقد تأكدت من هواجسي على غرابتها، فقبل يومين ناداني أبي وبوجودها قال بان احد الأقرباء ويعمل مهندسا يريد أن يتقدم لخطبتي، نظرت إلى وجهها فوجدته قد اضطرب وشحب لونه، فبدأت تطلق الكلمات المتشنجة.

- ومَن هذا الذي يريد أن يخطب نور ؟ هل نعرفه ؟ ومن قال له انها تريد الزواج ؟!

وفجأة قفزت إلى عقلي كلمات هدى حول الإرادة والاختيار والمبادرة... هذه هي بدائل الحظ ، فصرخت بقوة :

- نعم أنا موافقة على الزواج ... وهذا المهندس أعرفه، وأعرف أسرته جيدا ...لقد كبرت يا أبي ولا أريد أن أتحوّل إلى تمثال للعنوسة في هذا البيت.

أصابت الدهشة والاستغراب وجهيهما، فهما لم يتعودا على مثل هذا البوح وهذا الإصرار، ففي كل مرة يحاصرني الخجل، فاذهب إلى غرفتي ... شعرا بان هذه المرة تختلف عن المرات السابقة، وساد الصمت بينهما.

انسحبت أنا إلى غرفتي ...وما أن حلّ الليل حتى تسللت أمي كعادتها في كل مرة، وبدأت تتمتم بالكلمات المعهودة... نهضت من فراشي بسرعة وطلبت منها أن تتوقف، وترمي ما تحمله بيدها من أدوات الخرافة، وهمست لها بهدوء:

- يا أمي لقد وافقت وانتهى كل شيء ...أرجوك لا تحوّلي حبك لي إلى امتلاك .. لا تنظري اليّ كدمية إنسية... أنا إنسانة ولي مشاعر،وكل قريناتي تزوجن وكلهن أكملن الدراسة...ما الذي تريدينه مني .. هل تعرفين أنني بدأت اصبغ شعري لأخفي الشيب الذي غزا رأسي مرة واحدة؟ سأقول لك أيتها الأم الحنون... انني سأتزوج هذه المرة مهما كانت خصال الزوج ومواصفاته، فلقد أُسقط بيدي، ولم يعد ثمة مكان لتدلل أو غنج ،وإذا كنت تحبينني حقا، يجب أن تقبلي بقراري هذا... لكونه يا أمي سنة الحياة!.

ظلت مشدوهة ومشدودة أمامي، وتصلب جسدها وهي تنظر اليّ بعينين زائغتين، وكلما أتعمق بكلماتي اقرأ في وجهها حزنا غريبا ...وبدأت تنهار قواها حتى سقطت قرب السرير وهي تمسك بشعري وتردد بحزن :لقد ربيتك ولا احد يأخذك مني.

وبدأت اقبلها وأسكب الماء على وجهها... وأنا أؤكد لها بأنني لا ولن أكون بعيدة عنها.

الكاتب في سطور

حيدر عاشور حمودي شبيب العبيدي haederashoor@yahoo.com

الاسم الفني / حيدر عاشور

مواليد بغداد / ١٩٦٤

- كاتب وقاص وصحفي

- بكالوريوس / جامعة بغداد - كلية الفنون الجميلة(تصميم طباعي) - دبلوم معهد تكنولوجيا بغداد(هندسة طباعيه).

- عضو /الاتحاد العام الأدباء والكتاب في العراق

- عضو عامل / نقابة الصحفيين العراقيين

- عضو جمعية المصورين العراقيين بغداد /المركز العام

- حاليا محرر وكاتب قصة في مجلة "الأحرار" في العتبة الحسينية المقدسة. - نشر الكثير من القصص القصيرة.

- نشر قصصه في معظم الصحف والمجلات العراقية والعديد من المواقع الالكترونية، فضلاً عن عمله المستمر في عدد من الصحف العراقية،والإشراف على العديد من الصفحات الثقافية والإسلامية والفنية والمنوعة.

- صدرت عام ٢٠١١ له مجموعة قصصية حملت عنوان (بوح مؤجل) عن دار الينابيع للطباعة والنشر والتوزيع في العاصمة السورية دمشق بواقع (١٥١) صفحة من القطع المتوسط .

قصص قصيرة ..... حيدر عاشور

- زهايمرات مجموعة قصصية تحت الطبع في دار الوارث للطباعة والنشر

- تحت اليد مخطوطات في القصة القصيرة والرواية وبحوث متنوعة.

- بحث في الفساد الإداري والمالي (الرشوة أنموذجا)

- بحوث في حياة سيرة أهل البيت تحت التنقيب والبحث